

كامل كيلاني

# شجرة الحياة



# شجرة الحياة



# شجرة الحياة

تأليف  
كامل كيلاني

صفحات

<http://www.safahat.org>

موقع صفحات

جميع الحقوق محفوظة للناشر موقع صفحات  
(شركة ذات مسئولية محدودة)

إن موقع صفحات غير مسئول عن آراء المؤلف وأفكاره

وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

ص.ب. ٥٠، مدينة نصر ١١٧٦٨، القاهرة

جمهورية مصر العربية

تليفون: ٢٢٧٢٧٤٣١ ٢٠٢ + فاكس: ٢٢٧٠٦٣٥١ ٢٠٢ +

البريد الإلكتروني: safahat@safahat.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.safahat.org>

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لموقع صفحات.  
جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2011 Safahat.

All other rights related to this work are in the public domain.

## المحتويات

٧	١- النَّبَاتُ الشَّافِي
١٣	٢- النَّهْرُ الْمَسْحُورُ
١٩	٣- شَيْخُ الْجَبَلِ
٢٥	٤- حَدَائِقُ الْجِنِّيِّ
٣١	٥- عُبُورُ الْهَائِيَّةِ
٣٧	٦- الْعَقَبَةُ الْأَخِيرَةُ
٤٥	٧- «شَجَرَةُ الْحَيَاةِ»
٥٣	خَاتِمَةُ الْقِصَّةِ



## الفصل الأول

# النَّبَاتُ الشَّافِي

### (١) «يُوسُفُ» الصَّغِيرُ

عَاشَتْ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ سَيِّدَةٌ عَجُوزٌ، مَاتَ زَوْجُهَا بَعْدَ أَنْ تَرَكَ لَهَا طِفْلاً صَغِيرًا، لَا يَزِيدُ عُمُرُهُ عَلَى سَبْعِ سَنَوَاتٍ.

وَكَانَ اسْمُ ذَلِكَ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ «يُوسُفَ».

وَكَانَتْ هَذِهِ الْعَجُوزُ تُحِبُّ وَلَدَهَا «يُوسُفَ» أَشَدَّ الْحُبِّ. وَلَهَا الْحَقُّ فِي ذَلِكَ؛ فَإِنَّ طِفْلَهَا كَانَ مِثَالًا لِلذَّكَاةِ وَالْوَفَاءِ، وَالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ، كَمَا كَانَ عَطُوفًا بَارًّا بِكُلِّ مَنْ يَلْقَاهُ مِنْ إِنْسَانٍ وَحَيَوَانٍ.

### (٢) الْأَرْمَلَةُ الْعَجُوزُ

وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ قَدْ مَاتَ زَوْجُهَا وَتَرَكَهَا فَقِيرَةً — كَمَا قُلْنَا — فَقَدْ أَطْلَقَ عَلَيْهَا رَاوِي هَذِهِ الْقِصَّةِ وَصَفَ الْأَرْمَلَةَ<sup>١</sup>.

وَكَانَ وَلَدُهَا «يُوسُفُ» الصَّغِيرُ يُودِّي أَعْمَالَ الْبَيْتِ كُلِّهَا، لِيُهَيِّئَ الْفُرْصَةَ لَأُمِّهِ الْأَرْمَلَةَ الْمُسْكِينَةَ لِتَعْرِزَ الْقُطْرَ وَالصُّوفَ فَتَجْعَلَهُ حُبُوطًا تَفْتَلُّهَا؛ ثُمَّ تَنْسُجُ مِنْهَا أَثْوَابًا.. وَلَا تَكَادُ تَنْتَهِي مِنْ نَسْجِ هَذِهِ الْأَثْوَابِ حَتَّى تَذْهَبَ بِهَا إِلَى السُّوقِ لِتَبِيعَهَا فِيهَا، وَتَقْتَاتَ

<sup>١</sup> الأرملة: المرأة التي مات زوجها.



بِئْمَنِهَا هِيَ وَأَبْنُهَا «يُوسُفُ» الصَّغِيرُ، الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ طَوْلَ يَوْمِهِ دَائِبًا عَلَى كَنْسِ الْبَيْتِ، وَتَنْظِيفِ غَرْفِهِ، وَغَسْلِ أَرْضِهِ، وَطَبْخِ الطَّعَامِ وَتَهْيِئَتِهِ، وَتَعَهُدِ الْحَدِيقَةِ.  
فَإِذَا انْتَهَى مِنْ أَدَاءِ هَذَا الْوَاجِبِ انْصَرَفَ إِلَى إِعْدَادِ الْمَائِدَةِ، وَإِلَى إِصْلَاحِ ثِيَابِهِ وَجِذَائِهِ، وَثِيَابِ أُمِّهِ وَجِذَائِهَا، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَعْمَالِ الْبَيْتِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَشْغُلُ وَقْتَهُ كُلَّهُ..

### (٣) فِي جَوَارِ الْجَبَلِ

وَكَانَتِ الدَّارُ — الَّتِي يَسْكُنَانَهَا — مَلْكَأَ لَهُمَا؛ وَهِيَ دَارٌ صَغِيرَةٌ مُنْفَرِدَةٌ تَطُلُّ نَوَافِذُهَا عَلَى جَبَلٍ عَالٍ شَدِيدِ الارتفاعِ.  
وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْسَلِقَ هَذَا الْجَبَلَ وَيَصْعَدَ إِلَى قِمَّتِهِ، لِارْتِفَاعِهِ، وَالْتَوَاءِ الطَّرِيقِ الَّتِي تُحِيطُ بِهِ، وَكَثْرَةِ الْأَسْوَارِ الْمُرتَفَعَةِ وَالْمُنْحَدَرَاتِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي تُحُولُ دُونَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ.

### (٤) مَرَضُ الْعَجُوزِ

وَكَانَتِ الْأَرْمَلَةُ وَأَبْنُهَا «يُوسُفُ» يَقْضِيَانِ — فِي هَذَا الْبَيْتِ الْمُنْفَرِدِ — حَيَاةً سَعِيدَةً.  
وَقَدْ تَعَوَّدَا هَذِهِ الْمَعِيشَةَ وَارْتَضَيَاهَا وَاطْمَأَنَّآ إِلَيْهَا، وَهَوْنَ الصَّبْرُ عَلَيْهِمَا كُلَّ مَا تَحَمَّلَاهُ مِنْ مَتَاعِيهِمَا، فَلَمْ يَعْرِفِ الْحُزْنَ طَرِيقًا إِلَيْهِمَا.  
وَفِي نَاتِ يَوْمٍ؛ مَرِضَتِ الْأَرْمَلَةُ الْعَجُوزُ، فَكَانَ مَرَضُهَا سَبَبًا جَدِيدًا مِنْ أَسْبَابِ التَّنْغِيسِ وَالْكَدْرِ. وَلَمْ تَكُنِ الْأُمُّ تَعْرِفُ طَبِيبًا.  
وَلَوْ عَرَفَتِ الطَّبِيبَ لَمَا وَجَدَتْ فِي بَيْتِهَا شَيْئًا مِنَ الْمَالِ، لِتَدْفَعَهُ أَجْرًا لَهُ عَلَى مُعَالَجَتِهَا.

### (٥) حَيْرَةُ الْفَقِيرِ

وَاشْتَدَّ الْحُزْنُ بِوَالِدِهَا «يُوسُفَ» الْمَسْكِينِ، وَعَجَزَ عَنِ الْاهْتِدَاءِ إِلَى وَسِيلَةٍ تَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى شِفَائِهَا؛ فَضَاقَتْ بِهِ الدُّنْيَا، وَتَحَايَّرَ فِي أَمْرِهِ، فَلَمْ يَدْرِ مَاذَا يَصْنَعُ؟! وَلَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ —

لَأُمَّه — غَيْرَ الْعِنَايَةِ بِأَمْرِهَا، وَالْقِيَامِ عَلَى خِدْمَتِهَا، وَالسَّهْرِ عَلَى رَاحَتِهَا، وَتَقْدِيمِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ تِلْكَ الْمَرِيضَةُ مِنَ الْمَاءِ وَحَدَهُ؛ فَلَيْسَ فِي النَّبْتِ شَيْءٌ آخَرَ يُقَدِّمُهُ لَهَا. أَمَّا هُوَ، فَلَمْ يَكُنْ يَتَنَاوَلُ مِنَ الْغِذَاءِ إِلَّا كِسْرَةً مِنَ الْخُبْزِ الْيَابِسِ: الْخُبْزِ وَحَدَهُ بِغَيْرِ طَعَامٍ.

وَقَدْ لَازَمَ «يُوسُفُ» أُمَّهُ؛ فَلَمْ يُفَارِقْهَا لَحْظَةً وَاحِدَةً.  
وَكَانَ — كَمَا حَدَّثْتُكَ — لَا يَحْصُلُ عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْقُوَى أَكْثَرَ مِنْ تِلْكَ الْكِسْرَةِ مِنَ الْخُبْزِ الْحَافِّ.

وَكَانَ «يُوسُفُ» شَدِيدَ الْحَنُوقِ عَلَى أُمَّهِ. فَلَمَّا رَأَى مَا حَلَّ بِهَا مِنَ الْأَلَامِ، حَزَنَ وَبَكَى، مُشْفِقًا عَلَيْهَا، مُتَوَجِّعًا لَهَا — وَلَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ وَسِيلَةً لِشِفَائِهَا مِنَ الْأَلَامِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهَا — غَيْرَ الْأَمَلِ وَالرَّجَاءِ، وَصَادِقِ الدُّعَاءِ.

وَاشْتَدَّتِ الْعِلَّةُ بِالْأَرْمَلَةِ الْعَجُوزِ، وَزَادَ عَلَيْهَا الْأَلَمُ — يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ — حَتَّى أَضْعَفَ قُوَاهَا الْمَرَضُ، وَنَهَكَ جِسْمَهَا الدَّاءُ، فَعَجَزَتْ عَنِ الْكَلَامِ، كَمَا عَجَزَتْ عَنِ تَنَاوُلِ الطَّعَامِ. وَبَلَغَ بِهَا الضَّعْفُ أَنْ عَجَزَتْ عَنِ شُرْبِ الْمَاءِ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَيْهَا النَّسْيَانُ، فَلَمْ تَعُدْ تَذْكُرُ شَيْئًا.

وَلَعَلَّكَ تَدَهَّشُ إِذَا قُلْتَ لَكَ إِنَّ النَّسْيَانَ قَدْ بَلَغَ بِهَا حَدًّا جَعَلَهَا تَنْسَى وَلَدَهَا «يُوسُفَ» الصَّغِيرَ الْحَبِيبَ إِلَى نَفْسِهَا؛ فَلَا تَعْرِفُهُ إِذَا رَأَتْهُ، وَلَا تَفْهَمُ مِنْهُ شَيْئًا إِذَا حَدَّثَهَا، وَلَا تَسْمَعُهُ إِذَا نَادَاهَا.

## (٦) الْجِنِّيَّةُ «وِدَادُ»

فَاشْتَدَّ الْأَلَمُ بِوَلَدِهَا، وَلَازَمَ سَرِيرَهَا بِاِكْبًا. وَتَمَلَّكَتْهُ الْحَيْرَةُ، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ مَخْرَجًا مِنْ ضَيْقِهِ، فَهَتَفَ بِاسْمِ الْجِنِّيَّةِ الظَّرِيفَةِ «وِدَادَ» — صَارِحًا مُسْتَنْجِدًا بِهَا — لِتَكُونَ لَهُ عَوْنًا فِي هَذَا الْمَازِقِ الْحَرِجِ، وَنُيِّسَرَ لَهُ السَّبِيلَ لِإِنْفَازِ أُمَّهِ مِنْ تِلْكَ الْمَصَائِبِ وَالْمَحَنِ الَّتِي أَلَمَتْ بِهَا.

وَلَمْ يَكِدْ «يُوسُفُ» الصَّغِيرُ يَنْطِقُ بِاسْمِ صَاحِبَتِهِ، حَتَّى سَمِعَ صَوْتًا لَطِيفًا يَقُولُ لَهُ مُتَوَدِّدًا مُتَعَجِّبًا: «لَبَيْكَ يَا صَدِيقِي الصَّغِيرِ. لَقَدْ نَادَيْتَنِي، وَهَأَنْذِي قَدِ اسْتَمَعْتُ إِلَى نِدَائِكَ، وَاسْتَجَبْتُ لَكَ، فَخَبِّرْنِي: مَاذَا تُرِيدُ؟»

فَصَاحَ بِهَا «يُوسُفُ» الصَّغِيرُ مُسْتَعِظًا مُتَوَسِّلًا: «لَقَدْ طَالَمَا أَوْصَاكَ أَبِي وَالِدِي خَيْرًا، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ. فَإِذَا كُنْتَ أَنْتَ الْجَنِّيَّةَ «وِدَادَ» الَّتِي طَالَمَا حَدَّثْتَنِي عَنْهَا أَبِي، وَأَوْصَانِي بِالْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهَا؛ كُلَّمَا وَقَعْتُ فِي مَازِقٍ لَا أَسْتَطِيعُ الْخُلَاصَ مِنْهُ. فَاسْرِعِي — مُتَفَضِّلَةً — بِإِنْقَاذِ أُمِّي الْمُسْرِفَةِ عَلَى التَّلْفِ، فَإِنَّهَا — إِذَا تَخَلَّيْتُ عَنْهَا — سَتَتْرُكُنِي وَحِيدًا فِي هَذَا الْعَالَمِ.»

فَنظَرَتِ الْجَنِّيَّةُ — إِلَى «يُوسُفَ» الصَّغِيرِ — نَظْرَةَ إِشْفَاقٍ وَعَظْفٍ.. ثُمَّ دَنَتْ مِنْ الْأَرْمَلَةِ الْمُسْكِينَةِ — دُونَ أَنْ تَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ — وَانْحَنَتْ عَلَى الْعُجُوزِ تَفْحُصَ مَرَضَهَا فَحْصًا دَقِيقًا.

## (٧) نَصِيحَةُ الْجَنِّيَّةِ

فَلَمَّا عَرَفَتْ حَقِيقَةَ أَمْرِهَا، أَعْلَنْتَ عَجْزَهَا عَنْ شِفَائِهَا، قَائِلَةً: «لَيْسَ فِي مَقْدُورِي — يَا بَنِيَّ — أَنْ أَشْفِيَ أُمَّكَ الْمُسْكِينَةَ، وَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا أَحَدٌ غَيْرُكَ يَسْتَطِيعُ إِنْقَاذَهَا. فَأَنْتَ — وَحْدَكَ — الْقَادِرُ عَلَى شِفَائِهَا مِنْ ذَلِكَ الْمَرَضِ الْخَطِيرِ، إِذَا كُنْتَ لَا تَزَالُ — كَمَا أَعْرِفُهُ فِيكَ، وَكَمَا حَدَّثْتَنِي أَحْوَاتِي مِنَ الْجَنِّيَّاتِ، وَبَنَاتِ عَمَّاتِي مِنَ الْعِفْرِيَّاتِ — شُجَاعًا مِقْدَامًا، لَا تَهَابُ السَّفَرَ، وَلَا تَخْشَى الْعَقَبَاتِ، وَلَا يَعْرِفُ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِكَ سَبِيلًا.»

فَقَالَ «يُوسُفُ»: «سَتَرَيْنَ — أَبِيَّتَاهُ الْمُحْسِنَةُ الْكَرِيمَةُ — أَنَّي لَنْ أَدْجَرَ وَوَسَعًا فِي سَبِيلِ إِنْقَاذِ أُمِّي مِنَ الدَّاءِ، وَشِفَائِهَا مِنَ الْمَرَضِ.»

فَقَالَتْ لَهُ الْجَنِّيَّةُ «وِدَادُ»: «لَا سَبِيلَ إِلَى شِفَاءِ أُمَّكَ، إِلَّا إِذَا أَحْضَرْتَ لَهَا شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الْحَيَاةِ.»

فَسَأَلَهَا «يُوسُفُ»: «وَأَيْنَ هَذَا النَّبَاتُ، يَا سَيِّدَتِي؟»

فَقَالَتْ: «إِنَّهُ يَنْبُتُ فِي أَعْلَى هَذَا الْجَبَلِ الَّذِي تُطَلُّ عَلَيْهِ — كُلَّ يَوْمٍ — مِنْ نَافِذَةِ بَيْتِكَ وَوَمَتَى ظَفِرْتَ بِهَذَا النَّبَاتِ الشَّافِي، فَلَنْ يَبْقَى عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَعْصِرَهُ، ثُمَّ تَسْكُبَ عَصِيرَهُ فِي فَمِ أُمَّكَ، فَتَعُودَ إِلَيْهَا الْحَيَاةُ مِنْ جَدِيدٍ، وَتَشْفَى مِنْ مَرَضِهَا عَاجِلًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»

فَقَالَ «يُوسُفُ»: «شُكْرًا لَكَ، أَيُّهَا الْجِنِّيَّةُ الْكَرِيمَةُ. وَلَنْ أَتَوَانِيَ عَنِ الدَّهَابِ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ» لِأَحْصَلَ عَلَى نَبَاتِهَا فِي الْحَالِ. وَلَكِنْ حَرِّبْنِي، يَا سَيِّدَتِي «وِدَادُ»: مَنْ ذَا الَّذِي يُعْنَى بِأُمِّي أَتْنَاءِ سَفَرِي؟»

## (٨) «شَجَرَةُ الْحَيَاةِ»

وَمَا أَتَمَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ، وَجَعَلَ يَبْكِي، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي أَخْشَى أَنْ تَمُوتَ أُمِّي وَتُفَارِقَ الْحَيَاةَ قَبْلَ أَنْ أَعُودَ إِلَيْهَا بِالدَّوَاءِ.»

فَقَالَتْ لَهُ الْجِنِّيَّةُ: «كُنْ مُطْمَئِنًّا، أَيُّهَا الصَّغِيرُ الشَّفِيقُ. وَاعْلَمْ أَنَّكَ مَتَى ذَهَبْتَ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»؛ فَلَنْ تُصَابَ أُمُّكَ بِسُوءٍ، وَلَنْ تَكُونَ حِينِيذٍ فِي حَاجَةٍ إِلَى شَيْءٍ، حَتَّى تَعُودَ إِلَيْهَا بِالدَّوَاءِ الشَّافِي. فَادْهَبْ مُطْمَئِنًّا إِلَى غَايَتِكَ، وَسَتَبْقَى أُمُّكَ كَمَا هِيَ دُونَ أَنْ يُصِيبَهَا أَدَى حَتَّى تَعُودَ إِلَيْهَا مِنْ رِحْلَتِكَ سَالِمًا. أَمَا أَنْتَ: فَإِنَّكَ سَتَلْقَى أخطَارًا عَظِيمَةً، وَتَتَعَرَّضُ لِمَتَاعِبَ جَمَّةٍ، قَبْلَ أَنْ تَصِلَ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»، وَتَحْصَلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ نَبَاتِهَا الْعَجِيبِ. وَعَلَيْكَ — أَيُّهَا الشُّجَاعُ الصَّغِيرُ — أَنْ تَعْتَصِمَ بِالصَّبْرِ وَالْعَزْمِ وَالتَّبَاتِ، حَتَّى تَطْفُرَ بِهَذَا النَّبَاتِ.»

## (٩) حَارِسُ النَّبَاتِ

فَقَالَ لَهَا «يُوسُفُ»: «سَأَكُونُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكَ بِي، فَلَا تَخَافِي عَلَيَّ شَيْئًا؛ فَإِنِّي شُجَاعٌ، وَلَنْ يَنْقُصَنِي الإِقْدَامُ، إِنْ شَاءَ اللهُ. وَكَسْتُ أَطْلُبُ مِنْكَ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا.»

فَقَالَتْ الْجِنِّيَّةُ: «لَبَّيْكَ، أَيُّهَا الشُّجَاعُ. لَكَ مَا تُرِيدُ.»

فَقَالَ: «حَرِّبْنِي: كَيْفَ أَعْرِفُ هَذِهِ الشَّجَرَةَ؟ وَكَيْفَ أَمْضِي نَحْوَهَا؟ وَفِي أَيِّ مَكَانٍ مِنَ الْجَبَلِ أَهْتَدِي إِلَيْهَا؟»

فَقَالَتْ الْجِنِّيَّةُ: «مَتَى وَصَلْتَ إِلَى أَعْلَى الْجَبَلِ وَبَلَغْتَ الْقِمَّةَ، فَلَنْ يَصْعُبَ عَلَيْكَ الْاِهْتِدَاءُ إِلَيْهَا. وَلَيْسَ عَلَيْكَ — حِينِيذٍ — إِلَّا أَنْ تُنَادِيَ حَارِسَ النَّبَاتِ. فَإِنَّكَ مَتَى نَادَيْتَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ بِأَعْلَى صَوْتِكَ: «هَلُمَّ يَا حَارِسَ النَّبَاتِ!»؛ فَلَنْ تَتِمَّ النِّدَاءُ حَتَّى يَطْهَرَ لَكَ فِي الْحَالِ. فَاطْلُبْ إِلَيْهِ — حِينِيذٍ — شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الْحَيَاةِ.»

## (١٠) وداعُ الجَنِّيَّةِ

فَشَكَرَ «يُوسُفُ» لِجَنِّيَّةِ «وَدَاعٍ» نَصِيحَتَهَا وَإِرْشَادَهَا.

ثُمَّ قَبَلَ يَدَهَا، مُسْتَأْذِنًا فِي الرَّحِيلِ، بَعْدَ أَنْ قَبَلَ يَدَ أُمِّهِ الْمَرِيضَةِ، وَتَرَكَهَا فِي جِوَارِ  
الجَنِّيَّةِ الْكَرِيمَةِ.

ثُمَّ وَضَعَ فِي جَبِيهِ رَغِيْفًا كَامِلًا مِنَ الْحَبِزِ، لَتَكُونَ زَادَهُ فِي رِحْلَتِهِ الْبَعِيدَةِ.  
سَارَ فِي طَرِيقِهِ، بَعْدَ أَنْ حَيَّا صَاحِبَتَهُ «وَدَاعَ» — فِي احْتِرَامٍ وَأَدَبٍ — تَحِيَّةَ الْوَدَاعِ.  
فَشَيَّعَتْهُ الْجَنِّيَّةُ بِابْتِسَامَةٍ إِعْجَابٍ، وَقَدْ ظَهَرَ عَلَى مَلَامِحِ وَجْهِهَا مَا تُضْمِرُهُ مِنْ  
مَحَبَّةٍ، وَبَدَأَ عَلَى أَسَارِيرِهَا مَا تُخْفِيهِ مِنْ وَفَاءٍ وَعَطْفٍ لِذَلِكَ الطُّفْلِ الصَّغِيرِ الشُّجَاعِ،  
الَّذِي يَسْتَهِينُ بِالْمَتَاعِ، وَلَا يُبَالِي مَا يَلْقَاهُ مِنَ الْمَصَاعِبِ، مَاضِيًا فِي طَرِيقِ طَالَمَا  
أَهْلَكَتْ مَنْ مَشَى فِيهَا، وَلَمْ يَظْفَرْ بِالنَّجَاةِ أَحَدٌ مِنْ سَالِكِيهَا!  
وَسَارَ «يُوسُفُ» الصَّغِيرُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى الْجَبَلِ، وَقَلْبُهُ مَمْلُوءٌ ثِقَةً — بِالْفَوْزِ وَالنَّجَاحِ  
— وَإِيمَانًا وَثَبَاتًا وَاطْمِئْنَانًا.

وَكَانَ يَحْسَبُ الْجَبَلَ — وَهُوَ يَرَاهُ مِنْ نَافِذَةِ بَيْتِهِ — قَرِيبًا مِنْهُ، وَلَكِنَّهُ دَهَشَ حِينَ  
رَأَهُ أَبْعَدَ مِمَّا يَظُنُّ.

لَقَدْ كَانَ يَحْسَبُ أَنَّهُ سَيَصِلُ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ قَبْلَ نِصْفِ سَاعَةٍ.  
وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَكُنْ سَهْلًا كَمَا تَخَيَّلَ؛ فَقَدْ مَشَى — طُولَ الْيَوْمِ — دُونَ أَنْ يَصِلَ  
إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ.

## الفصل الثاني

# النَّهْرُ الْمَسْحُورُ

### (١) الْغُرَابُ وَالشَّبَكَةُ

وَلَمَّا بَلَغَ ثُلُثَ الطَّرِيقِ، رَأَى غُرَابًا وَقَعَ فِي حِبَالَةٍ<sup>١</sup> وَقَدْ نَصَبَ لَهُ تِلْكَ الْحِبَالَةَ غُلَامٌ شَرِسٌ مِنْ الْأَشْرَارِ، فَلَمْ يَلْبَثِ الْغُرَابُ أَنْ وَقَعَ فِيهَا أَسِيرًا.  
وظَلَّ الْغُرَابُ يُحَاوِلُ التَّخَلُّصَ مِنَ الشَّرِكِ؛ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى الْفُكَاكِ مِنْهُ.  
فَأَسْرَعَ «يُوسُفُ» إِلَى الْغُرَابِ الْمَسْكِينِ، وَقَطَعَ الْحَيْطَ الَّذِي اشْتَبَكَتْ رِجْلُهُ فِيهِ؛ فَخَلَّصَهُ مِنْ إِسَارِهِ، وَرَدَّ إِلَيْهِ حُرِّيَّتَهُ.  
فَطَارَ الْغُرَابُ بِسُرْعَةٍ؛ بَعْدَ أَنْ قَالَ لِـ«يُوسُفَ»: «أَشْكُرُ لَكَ الشُّكْرَ الْجَزِيلَ، يَا سَيِّدِي يُوسُفُ». وَسَأَجْزِيكَ عَلَى مَعْرِوْفِكَ حَيْرًا، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»  
فَدَهَشَ «يُوسُفُ» حِينَ سَمِعَ غُرَابًا يَتَكَلَّمُ.

### (٢) الدَّيْكَ وَالتَّعْلُبُ

وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكْفَ عَنْ مُوَاصَلَةِ السَّيْرِ وَلَمْ يَتَوَانَ عَنْ بُلُوغِ مَقْصِدِهِ.  
وَبَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ، جَلَسَ يَسْتَرِيحُ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ، وَكَانَ الْجُوعُ قَدِ اشْتَدَّ بِهِ؛ فَارْحَ يَأْكُلُ كِسْرَةً مِنَ الْخُبْزِ الَّذِي أَحْضَرَهُ مَعَهُ.  
فَرَأَى دَيْكًا يَجْرِي وَتَعْلَبًا يَجْرِي خَلْفَهُ، وَيَتَّبَعُهُ.

<sup>١</sup> الحبالة: المصيدة.

وَقَدْ أَسْرَعَ الدَّيْكَ — جُهِدَهُ — فِي الْفِرَارِ، وَلَكِنَّ التُّعْلَبَ أَوْشَكَ أَنْ يُدْرِكَ الدَّيْكَ وَيَفْتَرِسَهُ.

فَلَمَّا اقْتَرَبَ الدَّيْكَ مِنْ «يُوسُفَ» أَسْرَعَ إِلَيْهِ صَاحِبُنَا، فَأَمَسَكَ بِهِ مُتَلَطِّفًا، وَأَخْفَاهُ تَحْتَ نَوْبِهِ دُونَ أَنْ يَرَاهُ التُّعْلَبُ.

وَلَمْ يَنْتَبِهْ التُّعْلَبُ إِلَى مَا حَدَثَ؛ فَظَلَّ يَجْرِي، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ الدَّيْكَ لَا يَزَالُ يَجْرِي أَمَامَهُ.

أَمَّا «يُوسُفَ» الشُّجَاعُ الْكَرِيمُ النَّفْسِ، فَقَدْ وَقَفَ سَاكِنًا، دُونَ أَنْ تَبْدَرَ مِنْهُ حَرَكَةٌ حَتَّى لَا يَفْطِنَ التُّعْلَبُ إِلَى مَا فَعَلَ.

وَمَا زَالَ التُّعْلَبُ يَجْرِي بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ حَتَّى غَابَ عَن نَظَرِهِ..

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ «يُوسُفُ» إِلَى نَجَاةِ الدَّيْكَ، أَطْلَقَ سِرَاحَهُ وَتَرَكَهُ يَذْهَبُ إِلَى حَيْثُ يَشَاءُ.

فَقَالَ لَهُ الدَّيْكَ بِصَوْتٍ مُنْخَفِضٍ: «لَكَ الشُّكْرُ كُلُّ الشُّكْرِ، يَا سَيِّدِي «يُوسُفُ».

وَسَأَجْزِيكَ قَرِيبًا عَلَى صَنِيعِكَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ.»

### (٣) الضَّفِيعُ وَالتُّعْبَانُ

وَاسْتَرَاحَ «يُوسُفُ» شَيْئًا، ثُمَّ هَبَّ وَإِقْفًا وَاسْتَأْنَفَ سَيْرَهُ قَاصِدًا إِلَى الْجَبَلِ..

وَبَعْدَ مَسَافَةٍ طَوِيلَةٍ رَأَى ضَفِيعًا مَسْكِينَةً يَجْرِي خَلْفَهَا تُعْبَانٌ، وَهُوَ عَلَى وَشَكِّ

أَنْ يَبْتَلِعَهَا.

وَرَأَى الضَّفِيعَ حَائِقَةً مُضْطَرِبَةً، وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهَا الْفَزَعُ وَالْحَوْفُ، فَعَجَزَتْ عَنِ

الْحَرَكَةِ.

فَلَمَّا رَأَى التُّعْبَانَ يُسْرِعَ إِلَى الضَّفِيعِ — وَقَدْ فَتَحَ فَمَهُ لِابْتِلَاعِهَا — أَسْرَعَ إِلَى حَجَرٍ

فَرَمَاهُ بِهِ، بَعْدَ أَنْ سَدَدَهُ تَسْدِيدًا مُحْكَمًا إِلَى فَمِ التُّعْبَانِ.

فَدَخَلَ الْحَجَرُ حَلْقَ التُّعْبَانِ وَخَنَقَهُ فِي الْحَالِ، فِي اللَّحْظَةِ الَّتِي كَادَ يَلْتَهُمُ فِيهَا

الضَّفِيعَ.

وَابْتَهَجَتِ الضَّفِيعُ بِنَجَاتِهَا مِنَ الْهَلَاكِ، فَرَاحَتْ تَقْفِزُ، وَهِيَ فَرِحَانَةٌ بِخَلَاصِهَا مِنَ

الْهَلَاكِ.

ثُمَّ قَالَتْ لَهُ: «أَشْكُرُ لَكَ الشُّكْرَ الْجَزِيلَ، يَا سَيِّدِي «يُوسُفُ». وَسَأَجْزِيكَ عَلَى صَنِيعِكَ الْجَمِيلِ فِي الْقَرِيبِ الْعَاجِلِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ.»  
وَلَمْ يَدْهَشْ «يُوسُفُ» حِينَ سَمِعَ كَلَامَ الضُّفْدِيعِ، فَقَدْ أَلْفَ ذَلِكَ وَتَعَوَّدَهُ فِي هَذِهِ الرَّحْلَةِ الْعَجِيبَةِ، بَعْدَ أَنْ سَمِعَ حَدِيثَ الْغُرَابِ وَالذِّيكِ مِنْ قَبْلُ.

#### (٤) عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ

ثُمَّ وَاصَلَ «يُوسُفُ» السَّيْرَ، فِي طَرِيقِهِ إِلَى غَايَتِهِ الْعَظِيمَةِ.. وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ وَصَلَ إِلَى سَفْحِ الْجَبَلِ.

فَرَأَى نَهْرًا وَاسِعًا لَا يَكَادُ النَّظْرُ يَصِلُ إِلَى شَاطِئِهِ الْآخِرِ، وَهُوَ يَسِيلُ عِنْدَ سَفْحِ الْجَبَلِ.<sup>٢</sup>

فَوَقَفَ «يُوسُفُ» أَمَامَ النَّهْرِ حَائِرًا مُرْتَبِكًا، وَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «لَعَلِّي أَصَادِفُ قَنْطَرَةً أَوْ جِسْرًا أَوْ سَفِينَةً.»

ثُمَّ مَثَى عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ، فَرَأَهُ يُحِيطُ بِالْجَبَلِ كُلِّهِ، كَمَا يُحِيطُ الْخَاتَمُ بِالْإِصْبَعِ، أَوْ السَّوَارُ بِالْعَصَمِ، أَوْ الْعَقْدُ بِالرَّقَبَةِ، أَوْ الْخُلْخَالُ بِالسَّبَاقِ.

وَأَطَالَ تَأَمُّلَهُ فِي النَّهْرِ، فَرَأَهُ — فِي كُلِّ مَكَانٍ — شَدِيدَ الْعُمُقِ، عَظِيمَ الْاِتِّسَاعِ؛ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَ فِي أَيِّ نَاحِيَةٍ مِنْ نَوَاحِيهِ جِسْرًا وَلَا سَفِينَةً.

فَجَلَسَ «يُوسُفُ» الْمَسْكِينُ يَبْكِي عِنْدَ شَاطِئِ النَّهْرِ، وَصَاحَ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «تَعَالَى إِلَيَّ، يَا عَزِيزَتِي «وِدَادُ». هَلْمِي إِلَيَّ، أَيُّهَا الْجَنِّيَّةُ الْكَرِيمَةُ. أَقْبِلِي عَلَيَّ أَيُّهَا الْمُحْسَنَةُ

الْمُتَفَضِّلَةُ، وَلَا تَضْنِي عَلَيَّ بِالْمَعُونَةِ. فَلَيْسَ يَنْفَعُنِي أَنْ تُخْبِرِينِي أَنَّ فِي قِمَّةِ الْجَبَلِ دَوَاءً شَافِيًا يُنْقِذُ أُمَّي الْمَسْكِينَةَ، مَا دُمْتُ لَا أَجِدُ إِلَيْهِ سَبِيلًا.»

<sup>٢</sup> سفح الجبل: أسفله.



(٥) عَلَى ظَهْرِ دِيكٍ

وَمَا إِنَّ أْتَمَّ نِدَاءَهُ، حَتَّى ظَهَرَ أَمَامَهُ — فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ نَفْسِهَا، عَلَى شَاطِئِ النَّهْرِ —  
 — الدِّيكُ الَّذِي أَنْقَذَهُ «يُوسُفُ» مِنَ التُّغْلَبِ، وَقَالَ لَهُ: «لَنْ تَسْتَطِيعَ صَاحِبَتَكَ الْجَنِّيَّةُ  
 «وِدَادُ» أَنْ تَصْنَعَ لَكَ شَيْئًا فِي هَذَا الْمَكَانِ؛ لِأَنَّ الْجَبَلَ مَسْحُورٌ خَارِجٌ عَنْ سُلْطَانِهَا  
 وَقُوَّتِهَا، بَعِيدٌ عَنْ نَفُوزِهَا وَقُدْرَتِهَا. وَلَقَدْ سَمِعْتُ اسْتِغَاثَتَكَ فَأَسْرَعْتُ إِلَى نَجْدَتِكَ؛ لِأَنَّكَ  
 أَنْقَذْتَ حَيَاتِي مِنَ التَّلْفِ؛ وَقَدْ جِئْتُ لِأُثَبِّتَ لَكَ اعْتِرَافِي بِجَمِيلِكَ، وَشُكْرِي لِمَعْرُوفِكَ. فَهَلُمَّ  
 فَاصْعِدْ عَلَى ظَهْرِي. وَإِنِّي أُقْسِمُ لَكَ بِحَقِّ وَالِدَتِي الْعَزِيزَةِ، لِأُبَلِّغَنَّ بِكَ الشَّاطِئَ الْآخَرَ  
 مِنَ النَّهْرِ سَالِمًا.»



فَشَكَرَ لَهُ «يُوسُفُ»، وَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي الصُّعُودِ عَلَى ظَهْرِ الدِّيكِ وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ سَيَسْقُطُ  
 فِي الْمَاءِ؛ وَلَكِنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ أَمِنًا مِنَ الْغَرَقِ، حِينَ اسْتَقَرَّ عَلَى ظَهْرِ الدِّيكِ.

وَعَرَفَ أَنَّ الدَّيْكَ قَدْ أَحْكَمَ وَضَعَهُ بِمَهَارَةٍ؛ حَتَّى أَصْبَحَ «يُوسُفُ» مُسْتَقِرًّا عَلَى ظَهْرِ الدَّيْكَ، كَمَا يَسْتَقِرُّ الْفَارِسُ عَلَى ظَهْرِ الْحِصَانِ؛ بَلْ كَانَ أَنْبَتَ مِنْهُ اسْتِقْرَارًا، وَأَكْثَرَ مِنْهُ اطمِنَانًا.

وَقَدْ أَمْسَكَ «يُوسُفُ» بِعُرْفِ الدَّيْكَ وَهُوَ يَعْبُرُ النَّهْرَ.  
وَوَضَعَ الدَّيْكَ يَطِيرُ بِهِ، عَائِمًا عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ، عِشْرِينَ يَوْمًا.  
فَلَمَّا بَلَغَ الْيَوْمَ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ، وَصَلَ إِلَى الشَّاطِئِ الْآخِرِ، دُونَ أَنْ يَبْتَلَّ نَوْبَهُ بِقَطْرَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْمَاءِ.  
وَفِي خِلَالِ هَذِهِ الْأَيَّامِ، لَمْ يَشْعُرْ «يُوسُفُ» بِجُوعٍ وَلَا ظَمًا وَلَا حَاجَةَ لِلرُّقَادِ.

## (٦) جَفَافُ النَّهْرِ

وَقَدْ شَكَرَ «يُوسُفُ» الدَّيْكَ، حِينَ بَلَغَ الشَّاطِئِ الْآخَرَ سَالِمًا، وَأَثْنَى عَلَيْهِ أَحْسَنَ الثَّنَاءِ.  
فَلَمْ يَقُلْ لَهُ الدَّيْكَ شَيْئًا، وَنَفَسَ رِيشَهُ مُسْرُورًا مُبْتَهَجًا بِمَا أَدَّاهُ لِهَذَا الْمُحْسِنِ الصَّغِيرِ مِنْ جَمِيلٍ، جَزَاءً لَهُ عَلَى مَعْرُوفِهِ السَّابِقِ، ثُمَّ حَيَّاهُ مُودَعًا.  
وَمَا زَالَ الدَّيْكَ يَمْشِي حَتَّى غَابَ عَنْ نَظَرِهِ ...

وَتَلَفَّتْ «يُوسُفُ» حَوْلَهُ فَلَمْ يَجِدْ أَثْرًا لِلنَّهْرِ، فَقَدْ جَفَّ مَاؤُهُ، وَاحْتَفَى أَثْرُهُ فِي الْحَالِ.  
فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ، قَالَ: «لَا رَيْبَ عِنْدِي فِي أَنَّ جِنِّي الْجَبَلِ هُوَ الَّذِي أَجْرَى هَذَا النَّهْرَ الْعَظِيمَ، لِيَحُولَ بَيْنِي وَبَيْنَ غَايَتِي. فَلَمَّا رَأَى نَجَاحِي فِي اجْتِيَازِهِ، جَفَّفَ مَاءَ النَّهْرِ وَأَعَادَ الْأَرْضَ كَمَا كَانَتْ. فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا هَيَّأَ مِنْ مَعُونَةٍ، وَيَسَّرَ مِنْ تَوْفِيقٍ.»



## الفصل الثالث

# شَيْخُ الْجَبَلِ

### (١) الْعَزِيمَةُ الصَّادِقَةُ

وَسَارَ «يُوسُفُ» زَمَنًا طَوِيلًا، فَقَطَعَ فِي سَيْرِهِ مَسَافَاتٍ طَوِيلَةً شَاسِعَةً.  
وَلَكِنَّهُ وَجَدَ نَفْسَهُ — بَعْدَ أَيَّامٍ — لَا يَزَالُ بَعِيدًا عَنِ بُلُوغِ مَآرِبِهِ، وَلَا تَزَالُ الْمَسَافَةُ  
بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَبَلِ لَمْ تَزِدْ وَلَمْ تَنْقُصْ، بَلْ ظَلَّتْ كَمَا كَانَتْ قَبْلَ أَنْ يَغُوبَ النَّهْرُ عَلَى ظَهْرِ  
الدَّيْلِ!

وَلَوْ حَدَّثَتْ هَذِهِ الْمُفَاجِئَةُ بَعِيرَ هَذَا الطِّفْلِ الصَّابِرِ الشُّجَاعِ، لَازْتَبَكَ ارْتِبَاكًا شَدِيدًا،  
وَدَبَّ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِهِ، فَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى.  
وَلَكِنَّ «يُوسُفَ» — بَطَلَ هَذِهِ الْقِصَّةِ — كَانَ مِثَالًا لِلْمُتَابِرَةِ وَالْعَزِيمَةِ الصَّادِقَةِ،  
الَّتِي لَا تَنْتَنِي عَنِ مَطْلَبِهَا النَّبِيلِ، وَلَا تَتَرَدَّدُ وَلَا تَضْعُفُ أَمَامَ عَاقِبَةٍ، وَلَا تَرْجِعُ خَائِبَةً،  
مَهْمَا تَلَقَّ مِنْ مَتَاعِبٍ وَأَهْوَالٍ.

### (٢) الْيَوْمُ الْحَادِي وَالْعِشْرُونَ

لَقَدْ مَشَى وَاحِدًا وَعِشْرِينَ يَوْمًا كَامِلَةً، جَادًّا فِي سَيْرِهِ ...  
ثُمَّ رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَنْقَدِمْ إِلَى الْأَمَامِ شَيْئًا، وَلَمْ يَفْتَرِبْ مِنْ غَايَتِهِ خُطْوَةً وَاحِدَةً.  
فَهَلْ وَجَدَ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِهِ سَبِيلًا؟  
كَلَّا، بَلْ ظَلَّ كَمَا كَانَ ثَابِتًا لَا يَنْزَعِرُ.

لَقَدْ كَانَ «يُوسُفُ» — فِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ — أَثْبَتَ عَزْمًا وَأَصَدَقَ رَجَاءً مِمَّا كَانَ فِي يَوْمِ سَفَرِهِ الْأَوَّلِ، وَأَقْوَى عَلَى مُوَاجَهَةِ الشَّدَائِدِ وَمُغَالَبَةِ الْحَوَادِثِ.  
فَقَالَ فِي نَفْسِهِ: «وَاللَّهِ لَوْ سِرْتُ مِائَةَ سَنَةٍ، دُونَ أَنْ أُبْلَغَ مَا أُرِيدُ، لَنْ يَمْنَعَنِي ذَلِكَ مِنَ الْوُصُولِ إِلَى الْقِمَّةِ. وَلَنْ يَخْذَلَ اللَّهُ — سُبْحَانَهُ — مَنْ صَمَّمَ عَلَى بُلُوغِ مَقْصِدِ نَبِيلٍ.»

### (٣) الشَّيْخُ الْقَرْمُ

وَمَا إِنْ أَتَمَّ «يُوسُفُ» هَذِهِ الْجُمْلَةَ، حَتَّى ظَهَرَ أَمَامَهُ أَحَدُ الْأَقْرَامِ<sup>١</sup>.  
وَكَانَ ذَلِكَ الْقَرْمُ شَيْخًا كَبِيرًا طَاعِنًا فِي السَّنِّ. وَمَا رَأَهُ حَتَّى نَظَرَ إِلَيْهِ فِي خُبْتٍ وَمَكْرٍ.

ثُمَّ قَالَ: «أَرَاكَ لَا تَزَالُ تَطْمَعُ فِي الْوُصُولِ إِلَى غَايَتِكَ الْبَعِيدَةِ التَّحْقِيقِ، غَيْرَ يَأْتِسُ مِنَ الظَّفَرِ بِهَا، بَعْدَ أَنْ لَقِيتَ فِي سَبِيلِهَا أَكْبَرَ الْمَتَاعِبِ، وَأَشَدَّ الْعَقَابَاتِ.. وَإِلَّا فَمَا بِالْكَ تَرْنُو بِبِصْرِكَ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ؟»

فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «الآنَ عَرَفْتُ — يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ — حَقِيقَةَ مَا أَسْعَى إِلَيْهِ.»  
فَقَالَ الشَّيْخُ الْقَرْمُ: «لَا شَكَّ فِي أَنَّكَ تُرِيدُ الْوُصُولَ إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ»، لِتَحْصُلَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ نَبَاتِهَا الْعَجِيبِ.»  
فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «نَعَمْ. فَإِنَّ فِيهِ وَحْدَهُ شِفَاءً وَالدَّبِي الْمَرِيضَةَ بَعْدَ أَنْ أَشْرَفْتُ عَلَى الْمَوْتِ.»

### (٤) مَطْلَبُ عَسِيرٍ

فَهَزَّ الْقَرْمُ رَأْسَهُ، ثُمَّ وَضَعَ لِحْيَتَهُ الصَّغِيرَةَ عَلَى قَبْضَةِ عَصَاهُ الذَّهَبِيَّةِ، وَأَطَالَ تَأَمُّلَهُ فِي طِفْلِنَا الصَّغِيرِ «يُوسُفُ».

ثُمَّ قَالَ: «شَدَّ مَا تُعْجِبُنِي — يَا وَدَيِّ — وَدَاعَتَكَ الظَّاهِرَةَ عَلَى وَجْهِكَ، وَعَزِيمَتَكَ الْمُرْتَسِمَةَ عَلَى مُحْيَاكَ. فاعْلَمْ أَنَّي جِنِّي هَذَا الْجَبَلِ وَحَارِسُهُ الْأَمِينُ. وَقَدْ سَرَّنِي كَمَالُ

<sup>١</sup> القزم: القصير جدًا.

## شَيْخُ الْجَبَلِ

أَدْبِكَ وَصِدْقُ عَزِيمَتِكَ كَمَا أَعْجَبَنِي شَرِيفُ مَقْصِدِكَ، وَبُئِلُ غَايَتِكَ. وَقَدْ أَدْنَتْ لَكَ فِي  
الذَّهَابِ إِلَى قِمَّةِ الْجَبَلِ وَلَنْ أَعْرِضَ سَبِيلَكَ، وَلَنْ أَقْفَ فِي طَرِيقِكَ مَتَى حَقَّقْتَ لِي شَيْئًا  
وَاحِدًا.»

فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «لَبَّيْكَ — يَا سَيِّدِي الشَّيْخَ — فَاطْلُبْ مَا تَشَاءُ، وَمُرْ بِمَا تُرِيدُ.»



فَقَالَ شَيْخُ الْجَبَلِ: «لَسْتُ أُرِيدُ مِنْكَ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَحْصُدَ مَا يَحْتَوِيهِ حَقْلِي هَذَا مِنْ  
قَمْحٍ. ثُمَّ تُغْرِبِلُهُ وَتَطْحَنُهُ، بَعْدَ أَنْ تَذْرُوهُ، أَعْنِي بَعْدَ أَنْ تُنْقِيَهُ فِي الرِّيحِ. وَمَتَى أَتَمَمْتَ

ذَلِكَ كُلُّهُ، فَلَنْ يَبْقَى عَلَيْكَ إِلَّا أَنْ تَحْبِرَهُ. هَذَا هُوَ كُلُّ مَا أُرِيدُ. فَإِذَا حَقَّقْتَهُ لِي، فَنَادِنِي بِاسْمِي، أَحْضِرْ إِلَيْكَ فِي الْحَالِ. وَسَتَرَى الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُعَدَّاتِ كُلَّهَا إِلَى يَمِينِكَ فِي هَذِهِ الْحُفْرَةِ الْكَبِيرَةِ.»

وَلَمْ يَكِدْ يَبْتُمُّ حَدِيثَهُ حَتَّى غَابَ عَنْ نَاطِرِيهِ.

### (٥) تَهْيِئَةُ الْخُبْزِ

وَنَظَرَ «يُوسُفُ» إِلَى حُقُولِ الْقَمْحِ الْفَسِيحَةِ، فَرَأَاهَا تُغَطِّي سَفْحَ الْجَبَلِ كُلَّهُ. وَكَانَ فِي بَعْضِ هَذَا مَا يَدْخُلُ الْيَأْسَ إِلَى قَلْبِ أَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ثَبَاتًا، وَأَقْوَاهُمْ عَزِيمَةً. وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا تَغَلَّبَ «يُوسُفُ» الشُّجَاعُ عَلَى الْيَأْسِ؛ فَخَفَّفَ مِنْ ثِيَابِهِ، ثُمَّ أَخْرَجَ مِنَ الْحُفْرَةِ مِنْجَلًا.

وَظَلَّ يَقَطِّعُ سَنَايِلَ الْقَمْحِ بِعَزِيمَةٍ ثَابِتَةٍ، وَيُوَاصِلُ عَمَلَهُ الْمُضْنِيَّ — لَيْلَ نَهَارٍ — مِائَةً وَخَمْسَةَ وَتِسْعِينَ يَوْمًا.

وَلَمَّا قَطَّعَ سَنَايِلَ الْقَمْحِ كُلَّهَا، بَدَلَ جُهْدُهُ فِي دَرَسِهَا وَتَدْرِيبَتِهَا.

وَقَدْ اسْتَعْرَقَ مِنْهُ ذَلِكَ سِتِّينَ يَوْمًا كَامِلَةً.

وَلَمَّا انْتَهَى مِنْهُ، رَاحَ يَطْحَنُ الْقَمْحَ فِي طَاحُونَةِ شَيْخِ الْجَبَلِ؛ وَهِيَ مُقَامَةٌ عَلَى

مَقْرَبَةٍ مِنْ حُقُولِ الْقَمْحِ. وَظَلَّ يَطْحَنُ تِسْعِينَ يَوْمًا كَامِلَةً!

ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى عَجْنِ الدَّقِيقِ وَخَبْزِهِ، فَفَقَصَى فِي هَذَا الْعَمَلِ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا

أَيْضًا. وَلَمَّا نَضَجَ الْخُبْزُ، وَضَعَهُ بِنِظَامٍ عَلَى رُفُوفٍ أَشْبَهَ بِرُفُوفِ الْكُتُبِ.

وَلَمَّا أَتَمَّ ذَلِكَ كُلَّهُ، شَعَرَ بِسُرُورٍ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا كُلُّ مَنْ نَجَحَ فِي آدَاءِ وَاجِبِهِ.

ثُمَّ نَادَى جِنِّي الْجَبَلِ. وَمَا أَتَمَّ نِدَاءَهُ، حَتَّى ظَهَرَ الْقَرْمُ أَمَامَهُ.

وَأَقْبَلَ شَيْخَ الْجَبَلِ عَلَى الْخُبْزِ يَعْذُوهُ، فَإِذَا هُوَ تِسْعَةٌ وَعِشْرُونَ وَثَلَاثُمِائَةً رَغِيفٍ،

وَتِمَانِيَةً وَسِتُّونَ أَلْفًا وَأَرْبَعُمِائَةً أَلْفٍ رَغِيفٍ.

## (٦) الْعُلْبَةُ الصَّغِيرَةُ

وَأَرَادَ الشَّيْخُ أَنْ يَدَوِّقَ الْخُبْرَ، لِيَتَّبِعْنَ نَجَاحَ «يُوسُفَ» فِيمَا عَهَدَ إِلَيْهِ؛ فَالْتَهَمَ الرَّغِيفَ الْأَوَّلَ وَالرَّغِيفَ الْآخِرَ، فَوَجَدَهُمَا عَلَى مَا يَشْتَهِي وَيُرِيدُ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى حَدِّهِ مَرَّةً، ثُمَّ عَلَى ذُقْنِهِ مَرَّةً أُخْرَى؛ وَلَبِثَ وَقْتًا قَصِيرًا فِي تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ.

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى الطِّفْلِ، قَائِلًا: «لَا شَكَّ فِي أَنَّكَ وَلَدٌ كَرِيمٌ النَّفْسِ، عَظِيمُ الْهِمَّةِ، ثَابِتُ الْعَزِيمَةِ. وَإِنِّي مُكَافِئُكَ — عَلَى جِدِّكَ بِهَذِهِ الْعُلْبَةِ الثَّمِينَةِ.»

ثُمَّ أَخْرَجَ الْجَنِّيَّ مِنْ جَبِيهِ عُلْبَةً صَغِيرَةً مَصْنُوعَةً مِنَ الْخَشَبِ، هِيَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِعُلْبَةِ السُّعُوطِ<sup>٢</sup> شَكْلًا وَحَجْمًا.  
ثُمَّ أَعْطَاهُ الْجَنِّيُّ تِلْكَ الْعُلْبَةَ، وَقَالَ لَهُ مُبْتَسِمًا: «افْتَحْ هَذِهِ الْعُلْبَةَ الصَّغِيرَةَ، مَتَى رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِكَ، فَإِنَّكَ وَاجِدٌ فِيهَا مَا لَمْ تَرَهُ فِي حَيَاتِكَ.»

## (٧) وَدَاعُ الشَّيْخِ

وَلَمْ يَشَأْ «يُوسُفُ» أَنْ يُظْهِرَ — لِشَيْخِ الْجَبَلِ — اِحْتِقَارَهُ لِهَدِيَّتِهِ التَّفَهَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي كَافَاهُ بِهَا؛ لِأَنَّ «يُوسُفَ» كَانَ مُؤَدَّبًا لَطِيفًا.  
فَلَا عَجَبَ إِذَا كَتَمَ سُخْطَهُ، وَكَظَمَ غَيْظَهُ وَأَخْفَى عَنْهُ أَلَمَهُ فِي نَفْسِهِ، وَأَظْهَرَ ارْتِيَاحَهُ إِلَى هَدِيَّتِهِ، وَأَعْلَنَ لَهُ شُكْرَهُ عَلَيْهَا.  
فَحَيَّاهُ شَيْخُ الْجَبَلِ، ثُمَّ تَرَكَهُ بَعْدَ أَنْ قَهَقَهُ ضَاحِكًا، دُونَ أَنْ يَعْرِفَ الطِّفْلُ سَبَبًا لِهَذِهِ الضَّحْكَ الْعَالِيَةِ.  
وَلَمْ تَنْقُصْ لَحْظَةً وَاحِدَةً حَتَّى غَابَ عَنْ نَاضِرِيهِ.

<sup>٢</sup> السعوط: التبغ المسحوق.





## الفصل الرابع

# حَدَائِقُ الْجَنِيِّ

### (١) الْجِدَارُ الْعَالِي

وَاسْتَأْنَفَ «يُوسُفُ» سَيْرَهُ، وَقَدْ رَأَى الْحَظَّ يُقْبِلُ عَلَيْهِ وَيَوَاتِيهِ، وَالسَّعَادَةَ تَقْتَرِبُ مِنْهُ وَتَوَافِيهِ. وَلَا عَجَبَ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ كُلَّ خُطْوَةٍ يَمْشِيهَا سَتُقَرَّبُهُ مِنَ الْجَبَلِ وَتُدْنِيهِ. وَفِي مَدَى ثَلَاثِ سَاعَاتٍ كَانَ قَدْ اجْتَارَ ثُلُثِي الطَّرِيقِ؛ وَلَكِنَّهُ وَجَدَ أَمَامَهُ جِدَارًا عَالِيًا عَظِيمَ الارتفاعِ. وَعَجِبَ كَيْفَ ظَهَرَ أَمَامَهُ ذَلِكَ الْجِدَارُ فَجَاءَهُ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ رَأَاهُ مِنْ قَبْلُ. وَمَشَى فِي امْتِدَادِ الْجِدَارِ لِيَبْلُغَ نَهَايَتَهُ؛ وَلَكِنَّهُ فَرَعَ حِينَ رَأَى أَنَّهُ — بَعْدَ أَنْ سَارَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ — انْتَهَى إِلَى دَرَجَاتٍ سَلَّمَ تُحِيطُ بِالْجَبَلِ خَلْفَ هَذَا الْجِدَارِ الْعَالِي، دُونَ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى بَابٍ يَدْخُلُ مِنْهُ، أَوْ تُغْرَعُ يَنْفِذُ مِنْهَا إِلَى السَّلْمِ. فَجَلَسَ «يُوسُفُ» عَلَى الْأَرْضِ، وَظَلَّ يُسَائِلُ نَفْسَهُ مُتَحَيِّرًا، وَهُوَ مُسْتَعْرِقٌ فِي التَّفَكِيرِ. «تُرَى مَاذَا أَصْنَعُ؟» ثُمَّ اسْتَقَرَّ رَأْيُهُ عَلَى الْإِنْتِظَارِ. فَمَكَثَ — عَلَى هَذِهِ الْحَالِ — حَمْسَةَ وَأَرْبَعِينَ يَوْمًا.

### (٢) حَارِسُ الْجِدَارِ

وَكَانَ هَذَا الْإِنْتِظَارُ كَفِيْلًا بِأَنْ يَدْخَلَ الْيَأْسُ إِلَى قَلْبِ أَشَدِّ النَّاسِ ثَبَاتًا وَأَقْوَاهُمْ عَزِيمَةً. وَلَكِنَّ «يُوسُفُ» كَانَ لَا يُبَالِي الْعَقَبَاتِ وَلَا يَجِدُ الْيَأْسَ إِلَى قَلْبِهِ الْكَبِيرِ مَنْفَذًا. فَقَالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِي ثَبَاتٍ وَإِصْرَارٍ: «كَلَّا.. لَنْ أَرْضَى بِالْهَزِيمَةِ، وَلَنْ أَعُودَ خَائِبًا. كَلَّا وَلَنْ أَتَحَرَّكَ مِنْ هُنَا، وَلَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْمَكَانَ، وَلَوْ بَقِيَتْ فِيهِ مِائَةٌ عَامًا.»

وَمَا نَطَقَ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَتَّى سَقَطَ جَانِبٌ مِنَ الْجِدَارِ، وَظَهَرَتْ تُعْرَةٌ مُرَبَّعَةٌ.  
فَدَهَشَ «يُوسُفُ» مِنْ هَذِهِ الْمُفَاجَأَةِ..



ثُمَّ زَادَتْ دَهْشَتُهُ حِينَ رَأَى جَنِيًّا يَفْتَرِبُ مِنْهُ خَارِجًا مِنْ تِلْكَ التُّعْرَةِ؛ وَفِي يَدِهِ عَصَا  
غَلِيظَةٌ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: «كَيْفَ جِئْتَ إِلَى هُنَا، يَا وَلَدِي! وَلِمَاذَا قَدِمْتَ؟ وَمَا بِأَلْسِنَتِكَ لَا تَعُودُ  
مِنْ حَيْثُ أَتَيْتَ؟ أَجِئْتَنِي مِنْ هَذِهِ الْمَفَاجَأَةِ؟ كَيْفَ جَرُوتَ عَلَى الدُّنُوِّ مِنْ حَائِطِي؟ وَعَنْ  
أَيِّ شَيْءٍ تَبْحَثُ؟»

## حَدَائِقُ الْجِنِّيِّ

فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «عَنْ نَبَاتِ الْحَيَاةِ - أَيُّهَا الْجِنِّيِّ - أَبْحَثْ. فَهَلْ أَطْمَعُ فِي مَعُونَتِكَ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ؟»  
فَقَالَ الْجِنِّيُّ: «هَذَا مَطْلَبٌ عَسِيرٌ، بَلْ مُسْتَحِيلٌ؛ فَمَاذَا دَعَاكَ إِلَى الْمُخَاطَرَةِ بِنَفْسِكَ فِي هَذِهِ الْمُهْلِكَاتِ؟»

فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «إِنَّ أُمَّي مَرِيضَةٌ، يَا سَيِّدِي. وَقَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَوْتِ، وَلَا شَافِي لَهَا إِلَّا نَبَاتَ الْحَيَاةِ، وَقَدْ تَرَكْتُهَا وَهِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَى الْمَوْتِ.. وَلَنْ أَدَّخِرَ وَسْعًا فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَى هَذَا الدَّوَاءِ، كَلَّفَنِي ذَلِكَ مَا كَلَّفَنِي. فَإِذَا يَسَّرْتَ لِي أَنْ أَنْقُذَ مِنْ هَذَا الْجِدَارِ، فَإِنِّي رَهْنُ إِشَارَتِكَ وَطَوْعِ أَمْرِكَ، وَلَنْ أَتَأَخَّرَ فِي إِنْجَازِ كُلِّ مَا تَعْهَدُ بِهِ إِلَيَّ مِنْ عَمَلٍ.»

### (٣) شَرَابُ الْعِنْبِ

فَقَالَ الْجِنِّيُّ: «أَحَقًّا مَا تَقُولُ؟! لَقَدْ أَعْجَبَنِي مَا يَبْدُو عَلَى مَظْهَرِكَ مِنْ وَدَاعَةٍ وَعَزْمٍ وَتَبَاتٍ. وَلَعَلَّكَ لَا تَعْرِفُ مَنْ أَنَا؟ فاعْلَمْ - إِنْ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ - أَنَّي حَارِسُ الْجِدَارِ، وَأَمِيرُ سُكَّانِ هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ بِكُلِّ مَنْ تَحْوِيهِ مِنْ سَادَاتِ الْجِنِّ. عَلَى أَنِّي لَنْ أُسَهِّلَ لَكَ اجْتِيَازَ الْجِدَارِ. وَلَنْ أُمَكِّنَكَ مِنَ تَخْطِيِ الْحَائِطِ، إِلَّا إِذَا مَلَأْتَ كُهُوفِي كُلَّهَا بِشَرَابِ الْعِنْبِ. وَهَا هِيَ ذِي كَرُومِي أَمَامَكَ. فاقْطِفْ مَا تَحْوِيهِ مِنْ عِنْبٍ، وَاصْنَعْ لِي مِنْهُ شَرَابًا لَذِيذًا، ثُمَّ ضَعِ الشَّرَابَ فِي هَذِهِ الْبُرَامِيلِ. وَمَتَى أَنْجَزْتَ هَذَا الْمُهْمَ، فَلَا أَجِدُكَ مُقَصِّرًا أَوْ مُتَوَانِيًا فِي نَقْلِ الْبُرَامِيلِ - بَعْدَ ذَلِكَ - إِلَى كُهُوفِي الْأَرْضِيَّةِ، بِرُمِيلاً إِلَى جَانِبِ بِرْمِيلٍ، فِي صَفُوفٍ مُتَوَازِيَةٍ. وَسَتَجِدُ عَلَى مَسَافَةِ مِائَةِ خُطْوَةٍ - مِنْ هَذَا الْجِدَارِ الْعَالِي - كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمِعْدَاتِ. فَإِذَا حَقَّقْتَ لِي هَذَا الْمَطْلَبَ نَادَيْتَنِي؛ فَإِنِّي مِنْكَ قَرِيبٌ، وَلِرَجَائِكَ مُجِيبٌ.»  
وَلَمْ يَتِمَّ الْجِنِّيُّ قَوْلَتَهُ حَتَّى اسْتَحْفَى فِي الْحَالِ، وَسَدَّتِ الثُّغْرَةُ خَلْفَهُ.. وَعَادَ الْجِدَارُ كَمَا كَانَ!

### (٤) كَرْمَةُ الْجِنِّيِّ

وَنَظَرَ «يُوسُفُ» حَوْلَهُ، فَرَأَى كَرْمَةَ الْجِنِّيِّ الْفَسِيحَةَ؛ وَهِيَ حَدَائِقُ وَاسِعَةٌ، يَقْصُرُ عَنْ بُلُوغِ نَهَايَتِهَا النَّظْرُ؛ فَقَالَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ: «لَقَدْ جَمَعْتُ الْقَمْحَ مِنْ حُقُولِ الشَّيْخِ الْقَرَمِ،

وَيَسِّرَ اللَّهُ لِي ذَلِكَ عَلَى صُعُوبَتِهِ. وَلَنْ يُعْجِزَنِي — إِنْ شَاءَ اللَّهُ — أَنْ أَقْطِفَ كُرُومَ هَذِهِ الْحَدَائِقِ، وَأُنْجِزَ مَا طَلَبَهُ الْجِنِّيُّ. وَأَغْلَبُ ظَنِّي أَنْ هَذَا الْمُهَمُّ لَنْ يَسْتَعْرِقَ زَمَنًا طَوِيلًا، وَلَنْ يُحَوِّجَنِي إِلَى بَدَلٍ جُهْدٍ أَكْبَرَ مِمَّا بَدَلْتُ. وَلَنْ أَلْقَى مِنَ التَّعَبِ فِي عَصْرِ الْعِنَبِ أَكْثَرَ مِمَّا لَقِيتُ فِي جَمْعِ الْقَمْحِ، وَنَدْرِيتهِ وَطَحْنِهِ وَخَبْرِهِ.»

### (٥) عَزِيمَةُ الْأَبْطَالِ

ثُمَّ خَفَّفَ «يُوسُفُ» مِنْ ثِيَابِهِ، وَأَمْسَكَ بِمِنْجَلٍ صَغِيرٍ، وَأَقْبَلَ عَلَى عَمَلِهِ فِي نَشَاطٍ وَاجْتِهَادٍ، دُونَ أَنْ يُضَيِّعَ مِنْ وَقْتِهِ شَيْئًا. وَأَسْرَعَ إِلَى كُرُومِ الْعِنَبِ، يَقْطَعُ الْعِنَاقِيدَ مِنْ غُصُونِهَا، ثُمَّ يَضَعُهَا فِي طُشُوتٍ كَبِيرَةٍ.

وظَلَّ دَائِبًا عَلَى ذَلِكَ، مُسْتَهِينًا بِكُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ عَنَاءٍ وَجَهْدٍ، ثَلَاثِينَ يَوْمًا كَامِلَةً. وَلَمَّا انْتَهَى مِنْ ذَلِكَ، رَاحَ يَعْصِرُ الْعِنَبَ، ثُمَّ يُغْلِي عَصِيرَهُ، وَيَضَعُهُ فِي الْبَرَامِيلِ، بَعْدَ أَنْ يُصَبِّحَ شَرَابًا سَائِغًا لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ.. ثُمَّ يَنْقُلُ الْبَرَامِيلَ إِلَى كُهُوفِ الْجِنِّيِّ الْوَاسِعَةِ. وَقَدْ اسْتَعْرِقَ مِنْهُ ذَلِكَ تِسْعِينَ يَوْمًا كَامِلَةً.

### (٦) زَهْرَةُ الشُّوكِ

وَلَمَّا أَتَمَّ وَاجِبَهُ نَادَى الْجِنِّيَّ، فَظَهَرَ أَمَامَهُ فِي الْحَالِ. ثُمَّ رَاحَ الْجِنِّيُّ يَتَفَحَّصُ الْبَرَامِيلَ، وَيَبْدُو قُومًا فِيهَا مِنْ شَرَابِ الْعِنَبِ — بِرُؤْيَا بَعْدَ بِرُؤْيَا — حَتَّى اطْمَأَنَّ إِلَى نَجَاحِ «يُوسُفَ».

فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ الْجِنِّيُّ، مُهَنَّئًا إِيَّاهُ بِمَا وَفَّقَ إِلَيْهِ مِنْ فَوْزٍ بَاهِرٍ وَنَجَاحٍ نَادِرٍ. ثُمَّ قَالَ: «يَا لَكَ مِنْ مُثَابِرٍ صَابِرٍ، أَيُّهَا الرَّجُلُ الصَّغِيرُ الشَّهْمُ، أَلَا لَا بَدَّ مِنْ مُكَافَأَتِكَ عَلَى مَا بَدَلْتَ مِنْ جَهْدٍ، لِتَوْمَنٍ أَنَّ لِكُلِّ مُجْتَهِدٍ نَصيبًا. فَمَا أَرْضَى لِنَفْسِي أَنْ يُقَالَ عَنِّي: «إِنَّ أَحَدًا كَاتِبًا مَنْ كَانَ — بَدَلًا فِي سَبِيلِي جُهْدًا — قَلَّ أَوْ عَظَمَ — دُونَ أَنْ أُجْزِيَهُ عَلَيْهِ أَجْرًا.»

ثُمَّ أَخْرَجَ الْجِنِّيُّ مِنْ جَيْبِهِ «زَهْرَةَ الشُّوكِ»، وَأَعْطَاهُ إِيَّاهَا؛ مُكَافَأَةً لَهُ عَلَى مَا بَدَلَّ فِي سَبِيلِهِ — مِنْ جُهْدٍ.

## حَدَائِقُ الْجَنِيِّ

ثُمَّ قَالَ لَهُ الْجَنِيُّ: «مَتَى رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِكَ وَاحْتَجَبْتَ إِلَى شَيْءٍ، فَنَمَّ هَذِهِ الزَّهْرَةَ، وَتَمَنَّ مَا شِئْتَ. فَإِنَّكَ وَاجِدُ فِيهَا قَضَاءَ حَاجَتِكَ، وَبَالِغُ بِهَا كُلِّ أُمْنِيَّتِكَ.»  
فَدَهَشَ «يُوسُفُ» حِينَ رَأَى حَقَارَةَ الْهَدِيَّةِ!  
وَلَكِنَّ أَدَبَهُ وَحَيَاءَهُ أَبْيَا عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَرِضَ، وَمَنْعَاهُ أَنْ يُحَقِّرَ مِنْ شَأْنِ الْهَدِيَّةِ؛ فَلَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَنْ يَشْكُرَ لِلْجَنِيِّ هَدِيَّتَهُ.  
فَابْتَسَمَ لَهُ الْجَنِيُّ شَاكِرًا لَهُ تَحِيَّةً وَمَوَدَّةً.

وَلَمْ تَمْضِ عَلَى ذَلِكَ لَحْظَةً وَاحِدَةً، حَتَّى صَفَرَ الْجَنِيُّ؛ فَارْتَجَّحَ مِنْ صَفِيرِهِ الْجَبَلُ.  
ثُمَّ اخْتَفَى الْجَنِيُّ وَحَائِطُهُ عَنْ نَاطِرِهِ فِي الْحَالِ.  
وَأَنْفَسَحَتِ الطَّرِيقُ أَمَامَ «يُوسُفَ»، فَرَأَى فَرَاخَ يُوَأْصِلُ سَيْرَهُ؛ قَاصِدًا غَايَتَهُ، مُسْتَمِدًّا مِنْ  
اللَّهِ عَوْنَهُ وَرِعَايَتَهُ.



## الفصل الخامس

# عُبُورُ الْهَائِيَةِ

### (١) عَلَى حَافَةِ الْهَائِيَةِ

أَمَّا «يُوسُفُ» فَلَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ — لِإِبْلُوغِ الْقِمَّةِ بَعْدَ ذَلِكَ — إِلَّا مَسَافَةٌ قَلِيلَةٌ، لَا تَزِيدُ عَلَى نِصْفِ السَّاعَةِ.. وَقَدْ فَرِحَ وَابْتَهَجَ حِينَ رَأَى سَعْيَهُ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يُكَلَّلَ بِالنَّجَاحِ. وَلَكِنَّ سُورَهُ لَمْ يَطُلْ، فَقَدْ اعْتَرَضَتْهُ — فِي طَرِيقِهِ إِلَى غَايَتِهِ — هَائِيَةٌ عَمِيقَةٌ. وَكَانَتِ الْهَائِيَةُ — إِلَى عُمُقِهَا — وَاسِعَةً فَسِيحَةً يَسْتَحِيلُ عَلَى كَائِنٍ كَانَ أَنْ يَعْبُرَهَا قَفْزًا أَوْ يَجْتَازَهَا وَتَبًّا. فَوَقَّفَ «يُوسُفُ» عَلَى حَافَةِ الْهَائِيَةِ، وَأَطَّلَ عَلَيْهَا، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُبْصِرَ الْقَاعَ لِعُمُقِهَا.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ «يُوسُفُ» عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الشَّجَاعَةِ، لَدَبَّ إِلَى قَلْبِهِ الْيَأْسُ فَعَادَ مِنْ حَيْثُ أَتَى. وَلَكِنَّ «يُوسُفَ» كَانَ — كَمَا حَدَّثْتِكَ — أَقْوَى عَزِيمَةً، وَأَثْبَتَ قَلْبًا؛ مِنْ أَنْ يَتَطَرَّقَ إِلَيْهِ الْيَأْسُ لِحِظَّةٍ وَاحِدَةً!!

### (٢) حَيْرَةٌ «يُوسُفَ»

وَقَدْ أَعْمَلَ فِكْرُهُ لِتَذْلِيلِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ، فَمَشَى بِالْقُرْبِ مِنْ حَافَةِ الْهَائِيَةِ، لَعَلَّهُ يَهْتَدِي إِلَى جِسْرِ يُعْبُرُهُ إِلَى غَايَتِهِ. وَظَلَّ يُوَاصِلُ سَيْرَهُ أَيَّامًا. ثُمَّ انْتَهَى بِهِ السَّيْرُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي بَدَأَ مِنْهُ!



فَلَمَّا تَجَلَّتْ لَهُ حَيْبَةُ أَمَلِهِ فِي الْخَلَاصِ، قَالَ لِنَفْسِهِ: «تُرَى مَاذَا أَنَا صَانِعٌ! إِنِّي لَا أَكَادُ أَجْتَازُ عَقَبَةً، حَتَّى تَقُومَ فِي وَجْهِ عَقَبَةٍ أُخْرَى لَتَعُوقَنِي عَمَّا أُرِيدُ. وَلَقَدْ أَفْلَحْتُ فِي تَدْلِيلِ مَا صَادَفَنِي مِنْ عَقَبَاتٍ سَابِقَةٍ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَخَطِّي هَذِهِ الْعَقَبَةِ الْجَدِيدَةِ؟ وَمَنْ لِي بِعُبُورِ هَذِهِ الْهَائِيَةِ السَّحِيقَةِ؟»<sup>١</sup>  
وَشَعَرَ الطُّفْلُ — حِينئِذٍ — أَنَّ عَيْنَيْهِ قَدْ امْتَلَأَتَا بِالْأَمُوعِ.

وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ يَبْكِي فِيهَا صَغِيرُنَا الْهُمَامُ.  
وَلَكِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ لَمْ يَسْتَسْلِمَ لِلْحُزْنِ، وَلَمْ يَتِمَادَ فِي الْبُكَاءِ. فَكَفَّفَ مِنْ دَمْعِهِ، ثُمَّ رَاحَ يَبْحَثُ جَاهِدًا عَنِ وَسِيلَةٍ تُهَيِّئُ لَهُ اجْتِيَازَ الْهَائِيَةِ فَلَمْ يَهْدِهِ تَفْكِيرُهُ إِلَى نَتِيجَةِ يَطْمَئِنُّ إِلَيْهَا.

### (٣) عَوَاءُ الدُّنْبِ

فَجَلَسَ عَلَى حَافَةِ الْهَائِيَةِ مُكْتَتِبًا حَزِينًا، وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى وَسِيلَةٍ يَتَوَسَّلُ بِهَا، أَوْ حِيلَةٍ تُسَاعِدُهُ عَلَى اجْتِيَازِ هَذِهِ الْعَقَبَةِ.  
وَإِنَّهُ لَمُسْتَعْرِقٌ فِي تَفْكِيرِهِ؛ إِذْ طَرَقَ سَمْعُهُ — فَجَاءَهُ — عَوَاءُ هَائِلٍ مَخِيفٍ.  
فَالْتَفَتَ؛ فَإِذَا بِهِ يَرَى — عَلَى قَبِدِ عَشْرِ خُطُوتٍ مِنْهُ — زَنْبًا هَائِلًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ بِعَيْنَيْنِ مُلْتَهَبَتَيْنِ.

ثُمَّ يَقُولُ لَهُ بِصَوْتٍ هَائِلٍ مُفْرَعٍ: «مَا الَّذِي جَاءَ بِكَ إِلَى هُنَا، يَا غُلامٌ؟ وَعَنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْحَثُ فِي مَمْلَكَتِي، أَيُّهَا الرَّائِدُ الْجَرِيءُ؟»  
فَأَجَابَهُ «يُوسُفُ»: «لَقَدْ جِئْتُ — يَا أُوَيْسُ — بَاحِثًا عَنِ نَبَاتِ الْحَيَاةِ؛ لِأُنْقِذَ بِهِ وَالِدَتِي الْمَرِيضَةَ الَّتِي أَشْرَفَتْ عَلَى التَّلَفِّ. فَإِذَا أَعْنَتَنِي عَلَى بُلُوغِ هَذِهِ الْغَايَةِ، وَيَسَّرَتْ لِي السَّبِيلَ إِلَى تَحْقِيقِهَا، أَصَبَحْتُ لَكَ تَابِعًا أَمِينًا: أَنْتُمْرُ بِكُلِّ مَا تَأْمُرُنِي بِهِ.. وَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَكَ الْفَضْلُ فِي مُعَاوَنَتِي عَلَى اجْتِيَازِ الْهَائِيَةِ.»

<sup>١</sup> السحيقية: العميقة.



فَقَالَ لَهُ الذَّنْبُ: «لَكَ ذَلِكَ مِنِّي، مَتَى حَقَّقْتَ لِي مَطْلَبًا وَاحِدًا.»

#### (٤) أَدَوَاتُ الصَّيْدِ

فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «لَبَّيْكَ — يَا سَيِّدِي — فَإِنِّي رَهْنُ إِشَارَتِكَ، وَطَوَّعُ أَمْرِكَ.»  
فَقَالَ لَهُ الذَّنْبُ: «إِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَصْطَادَ كُلَّ مَا تَحْوِيهِ غَابَتِي مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ؛  
فَتَشْوِي لِي نِصْفَهُ، وَتَقْلِي النِّصْفَ الْآخَرَ؛ فَلَكَ عَهْدٌ أَن أُيسَّرَ لَكَ السَّبِيلَ لِاجْتِيَانِ

الهاوية السحيقة. وسَترى أَنَّ ذئبَ الجبلِ لا يكذبُ وعدهُ ولا ينقضُ عهدهُ. وسَجدُ — على مسافةِ خطواتٍ قليلةٍ منك — ما تحتاجُ إليه من أدواتِ الصيدِ والطبخِ. فأفعلُ ما أمرتكَ به، ومَتى وُفقتُ إلى إنجازِهِ، ناديتُني فوجدتُني أمامَكَ في الحالِ..»  
 ولم يَمِّمِ الذئبُ قولتهُ، حتَّى استخفى عن ناظرِهِ في الحالِ.  
 فتَدَرَّع «يوسفُ» بالصَّبرِ والشَّجاعةِ، واعتصمَ بالثَّباتِ والعزمِ.. ثمَّ تناولَ من خزانةِ الذئبِ قوسًا وسهامًا، وراحَ يرمي بنبالِهِ ما يَمُرُّ به من العُصافيرِ والبَطِّ والوَرِّ والديكةِ البرِّيَّةِ، على اختلافِ أنواعِها.  
 ولكِنَّه لم يَكُنْ يُحسِنُ الرَّمَايةَ، وتَسديدِ السَّهامِ إلى واحدَةٍ منها؛ فلم يَصطدْ شيئًا برَّغمِ ما بذلَهُ من جُهدٍ عَظيمٍ.

## (5) «أبو حاتمٍ»

وقَدَ أَمْضى على هذهِ الحالِ المؤيِّسةِ ثمانيةَ أيَّامٍ؛ فدَبَّ إلى نَفْسِهِ الضَّجْرُ والسَّامُ، واستَوَى عليه الحُزْنُ والألمُ، وضاقَ صدرُهُ بما هوَ فيه من غَمٍّ وهمٍّ.  
 ولكِنَّ أَمَلَهُ في الفُوزِ لم يَفارقهُ لحظةً واحدَةً؛ فَعَدَّ كانَ على ثِقَةٍ تامَّةٍ أَنَّ اللهَ — سُبْحانَهُ، وهوَ أَعَدُّ العادِلينَ — لن يَحْذُلَ الصَّابرينَ، ولن يَضيعَ جُهودَ العَاملينَ.

وبينما هو يَنْتَظِرُ الفَرَجَ بَعْدَ الصَّيقِ، إذ أَقْبَلَ عليه الغرابُ، وحيَّاهُ قائلاً: «لَكَ الخَيْرُ، أيُّها الرَّايدُ الشُّجاعُ! أنا «أبو حاتمٍ». وما أَنسَ لا أَنسَ — ما حَييتُ — أَنَّكَ أَنْقَذتُني من الهلاكِ، وأَقَدَّ وَعَدتَكَ — حينئذٍ — بأنَّ أَكافِئَكَ على مَعروفِكَ. فالآنَ أبرُّ لَكَ بِوعدي، وأُخَلِّصُكَ من هذا المَازِقِ الخَطيرِ. فإِنِّي لَعلى ثِقَةٍ من أَنَّ الذئبَ آكَلُكَ — لا مَحالَةَ — إذا عَجَزتَ عن الصَّيدِ، أو تَهاونتَ في إنجازِ ما يَطْلُبُهُ مِنْكَ. فلنَ يَسْتَطيعَ صَبْرًا على الجُوعِ، ولن يَجِدُ أَمامَهُ — حينئذٍ — شيئًا يَأْكُلُهُ سِوَاكَ. فَهَلُمَّ فَاتْبِعْني، وَأنا الكَفيلُ بصيْدِ ما تَحويهِ العُغابَةُ من طَيْرٍ وَحيوانٍ. وَلنَ أَكَلِّفَكَ شيئًا أَكثَرَ من أَنَّ تَجَمَعَ ما أُسْقِطُهُ لَكَ من الصَّيْدِ، ثُمَّ تُعَدُّ مِنْهُ لِلذئبِ طَعامَهُ المَنشُودَ..»

## (٦) نَجَاحُ الْمَسْعَى

وَلَمَّا أَمَّ «أَبُو حَاتِمٍ» قَوْلَتَهُ، أَسْرَعَ إِلَى الْفَضَاءِ مُحَلِّقًا فَوْقَ الْأَشْجَارِ، وَظَلَّ يَضْرِبُ — بِمِنْقَارِهِ وَمَخَالِهِ — كُلَّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ؛ فَيَصْرَعُهُ فِي الْحَالِ، وَيَسْقُطُ عَلَى الْأَرْضِ.

وَلَمْ تَنْقُصْ مِائَةٌ وَخَمْسُونَ يَوْمًا، حَتَّى نَجَحَ الْغُرَابُ فِي صَيْدِ الْعَدَدِ الْكَبِيرِ؛ الَّذِي تَحْوِيهِ الْغَابَةُ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ.

وَلَمْ يُضِعْ «يُوسُفُ» شَيْئًا مِنْ وَقْتِهِ بِلا عَمَلٍ، فَقَدْ كَانَ يُسْرِعُ إِلَى مَا يَصْطَادُهُ لَهُ الْغُرَابُ، فَيَنْزِعُ ريشَ الطَّيْرِ، وَيَسْلُخُ جِلْدَ الْحَيَوَانِ.

ثُمَّ أَوْقَدَ النَّارَ، وَجَعَلَ يَشْوِي نِصْفَ الصَّيْدِ، وَيَقْلِي نِصْفَهُ الْآخَرَ؛ حَتَّى إِذَا نَضَجَ الصَّيْدُ كُلُّهُ، جَمَعَهُ، وَرَتَّبَهُ صَفًّا صَفًّا ...

وَلَمَّا اطْمَأَنَّ الْغُرَابُ إِلَى نَجَاحِ مَسْعَاهُ، قَالَ لِصَاحِبِهِ «يُوسُفُ» بَعْدَ أَنْ حَيَّاهُ، وَدَعَا لَهُ بِتَحْقِيقِ مَا يَتَمَنَّاهُ: «وَدَاعًا، أَيُّهَا الرَّائِدُ الْمِقْدَامُ. لَقَدْ اجْتَرَزْتُ كُلَّ مَا يَعْتَرِضُكَ مِنْ عَقَبَاتٍ وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَّا عَقَبَةٌ وَاحِدَةٌ. وَلَقَدْ كَانَ يُسْعِدُنِي — لَوْ اسْتَطَعْتُ — أَنْ أَذِلَّ لَكَ كُلَّ مَا يَعْتَرِضُكَ مِنْ مَصَاعِبٍ وَعَقَبَاتٍ. وَلَكِنْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ!! فَلَيْسَ ذَلِكَ فِي حُدُودِ قُدْرَتِي وَإِمْكَانِي. فَادْهَبْ فِي رِعَايَةِ اللَّهِ، وَاعْتَصِمْ بِمَا تَمَيَّرْتَ بِهِ مِنَ الْمُنَابَرَةِ وَالصَّبْرِ؛ فَلَنْ يَضِيعَ جُهْدُكَ بِيَدِهِ مُخْلِصٌ ثَابِتُ الْإِيمَانِ، رَاجِحُ الْعَقْلِ، فِي سَبِيلِ غَايَةِ نَبِيلَةٍ؛ وَلَنْ تَخْذَلَ الْجَنِّيَّاتُ رَائِدًا، لَهُ مِثْلُ عَزِيمَتِكَ الْعَلَّابَةِ فِي مُوَاجَهَةِ الصَّعَابِ وَالْأَخْطَارِ. إِنَّ طَاعَةَ الْأَبْنَاءِ وَمَحَبَّتَهُمْ لِآبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ كَفِيلَتَانِ لَهُمْ بِالْفَوْزِ وَالنَّجَاحِ وَالنَّعْلَبِ عَلَى الشَّدَائِدِ. وَإِنَّا مَعْشَرَ الْجَنِّ لَنَعَجَبُ بِأَمْثَالِكَ مِمَّنْ يَحَلِّي بِهَاتَيْنِ الْخَصْلَتَيْنِ؛ وَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَإِنَّا نَبْدُلُ كُلَّ جُهِودِنَا فِي نَصْرَتِهِ وَمَعُونَتِهِ.»

## (٧) وَليمةُ الذُّئْبِ

وَأَرَادَ «يُوسُفُ» أَنْ يَشْكُرَ لـ«أَبِي حَاتِمٍ» صَنِيعَهُ، وَلَكِنَّهُ سُرِعَانَ مَا غَابَ عَنْ نَاطِرِهِ.. فَنادَى «يُوسُفُ» الذُّئْبَ، وَلَمْ يَكُنْ يَفْعَلُ حَتَّى حَضَرَ إِلَيْهِ! فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «هَلُمَّ يَا سَيِّدِي «أُويسُ»، فَقَدْ أَنْجَزْتُ لَكَ مَا طَلَبْتَ مِنْ لَحْمِ الطَّيْرِ وَالْحَيَوَانِ؛ مَشُويًا وَمَقْلِيًّا.»

فَابْتَهَجَ «أُوَيْسُ» بِمَا رَأَى، وَأَقْبَلَ عَلَى الْأَرَانِبِ وَالطَّيْرِ وَالغِزْلَانِ يَنْدَوُقُهَا فَرَحَانٍ مَسْرُورًا. ثُمَّ التَّفَتَ إِلَى الطِّفْلِ الشُّجَاعِ، قَائِلًا: «مَا أَكْرَمَ نَفْسَكَ، أَيُّهَا الصَّغِيرُ الشُّجَاعُ. فَلَا بُدَّ مِنْ مُكَافَأَتِكَ عَلَى مَا بَدَّلْتَهُ فِي سَبِيلِي مِنْ تَعَبٍ؛ حَتَّى لَا يَقُولَ أَحَدٌ: إِنَّكَ أَدَيْتَ لِذَنْبِ الْجَبَلِ عَمَلًا، دُونَ أَنْ تَصِيبَ عِنْدَهُ أَجْرًا.»

### (٨) عَصَا «أُوَيْسُ»

ثُمَّ أَعْطَاهُ «أُوَيْسُ» عَصَاهُ، قَائِلًا: «سَتَكُونُ لَكَ هَذِهِ الْعَصَا حَيْرَ مُعِينٍ، بَعْدَ أَنْ تَحْصُلَ عَلَى نَبَاتِ الْحَيَاةِ. فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِذَا أَرَدْتَ الْعُودَةَ إِلَى دَارِكَ، أَوْ عَنَّكَ الذَّهَابُ إِلَى مَكَانٍ بَعِيدًا كَانَ أَوْ قَرِيبًا — إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ هَذِهِ الْعَصَا. فَهِيَ حَيْرٌ لَكَ، وَأَسْرَعُ لِبُلُوغِ غَرَضِكَ مِنْ أَلْفِ حِصَانٍ.»

لَمْ يُصَدِّقْ «يُوسُفُ» أَنَّ لِهَذِهِ الْعَصَا قِيَمَةً أَوْ خَطَرًا، وَحَسِبَ الذَّنْبَ يَسْحَرُ مِنْهُ. فَهَمَّ بِالْقَائِلِهَا إِلَى الْأَرْضِ؛ وَلَكِنَّ حَيَاءَهُ وَأَدَبَهُ نَهَاهُ عَنِ احْتِقَارِ الْهَدِيَّةِ، مَهْمَا تَكُنْ قِيَمَتُهَا.

### (٩) نَجْدَةُ «أُوَيْسُ»

وَانْتَبَهَ «يُوسُفُ» عَلَى صَوْتِ الذَّنْبِ، وَهُوَ يَقُولُ: «هَلُمَّ فَاصْعَدْ فَوْقَ ظَهْرِي لِأَعْبُرَ بِكَ الْهَاطِيَةَ أَيُّهَا الرَّائِدُ الشُّجَاعُ.»

فَصَعِدَ «يُوسُفُ» عَلَى ظَهْرِ «أُوَيْسِ».

وَلَمْ يَسْتَقِرَّ فِي جِلْسَتِهِ، حَتَّى قَفَزَ بِهِ «أُوَيْسُ» قَفْزَةً وَسِعَةً جَبَّارَةً عَاتِيَةً، بَلَغَ بِهَا النَّاحِيَةَ الْأُخْرَى مِنَ الْهَاطِيَةِ.

وَنَزَلَ «يُوسُفُ» شَاكِرًا لِلذَّنْبِ مَعْرُوفَةً.

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ سِرَّهُ إِلَى غَايَتِهِ، وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَكْلَأَهُ وَيَرَعَاهُ، وَيَبْلُغَهُ مَا يَتَمَنَّاهُ.

## الفصل السادس

# العقبة الأخيرة

### (١) السورُ العالی

وَوَظَلَّ «يُوسُفُ» سَائِرًا، حَتَّى لَاحَتْ لِعَيْنِهِ الْحَدِيقَةُ الَّتِي وَصَفَتْهَا الْجَنِّيَّةُ «وِدَادَ»، حَيْثُ تَنَبَّأَتْ فِيهَا «شَجَرَةُ الْحَيَاةِ».  
وَمَا رَأَى سُورَ الْحَدِيقَةِ حَتَّى امْتَلَأَ قَلْبُهُ سُورًا وَبَهْجَةً، وَأَحَسَّ أَنَّ قَلْبَهُ يَخْفُقُ مِنْ الْفَرَحِ بِبُلُوغِ الْغَايَةِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي سَعَى إِلَيْهَا.

### (٢) عَلَى حَافَةِ الْبُرْكَاتِ

وَبَيْنَمَا هُوَ شَاخِصٌ بِبَصَرِهِ إِلَى سُورِهَا الْعَالِي — وَهُوَ جَادٌّ فِي سَيْرِهِ — إِذَا بِرَجُلِهِ تَغَوَّصَ فِي أَرْضِ لَيْبَةِ!  
فَلَا يَكَادُ يَنْظُرُ إِلَى مَوْطِئِ قَدَمِهِ، حَتَّى يَرَى أَمَامَهُ بُرْكَاتٍ مُسْتَطِيلَةً، عَظِيمَةَ الْاِتِّسَاعِ، بَعِيدَةَ الْعُمُقِ لَا يُدْرِكُ الْبَصَرُ غَايَتَهَا، وَلَا يَبْلُغُ النَّظْرُ نَهَايَتَهَا. وَكَانَ عَلَى وَشِكِّ أَنْ يَسْقُطَ فِي الْبُرْكَاتِ؛ لَوْلَا أَنَّهُ قَفَزَ رَاجِعًا إِلَى الْوَرَاءِ بِسُرْعَةٍ فَائِقَةٍ.

وَوَقَفَ «يُوسُفُ» مُفَكِّرًا، وَقَالَ لِنَفْسِهِ: «هَذِهِ — بِلَا شَكِّ — هِيَ الْعَقَبَةُ الْأَخِيرَةُ؛ الَّتِي حَدَّثَنِي عَنْهَا الْغُرَابُ. وَمَا دُمْتُ قَدْ نَجَحْتُ فِي اجْتِيَازِ كُلِّ مَا صَادَفَنِي فِي طَرِيقِي مِنْ عَقَبَاتٍ، بِفَضْلِ مَا بَدَلْتُهُ لِي الْجَنِّيَّةُ الْكَرِيمَةُ: «وِدَادُ» مِنْ مَعُونَةٍ صَادِقَةٍ. فَمَا أَظُنُّ «وِدَادَ» تَنَحَّلَى عَنِّي فِي هَذِهِ الْمَرَحَلَةِ الْأَخِيرَةِ، بَعْدَ أَنْ أُرْسَلْتُ إِلَى الدِّيكِ وَالْغُرَابِ وَالْقِرْمِ وَالْجَنِيِّ وَالذَّبِّ. فَلَا نَتَّظِرُ مُسَاعَدَتَهَا إِيَّايَ لِاجْتِيَازِ آخِرِ الْعَقَبَاتِ.»

وَمَشَى «يُوسُفُ» عَلَى حَافَةِ الْبِرْكَةِ، لَعَلَّهُ يَصِلُ إِلَى نِهَايَتِهَا. وَظَلَّ سَائِرًا يَوْمَيْنِ، فَإِذَا بِهِ يَجِدُ نَفْسَهُ آخِرَ الْأَمْرِ — وَقَدْ انْتَهَى بِهِ الْمَسْعَى إِلَى مَكَانِهِ الْأَوَّلِ، الَّذِي بَدَأَ سَيْرَهُ مِنْهُ. فَلَمْ يَبْسُطْ «يُوسُفُ»، وَلَمْ تَفْتُرْ عَزِيمَتُهُ.

وَجَلَسَ عَلَى حَافَةِ الْبِرْكَةِ، يُحَدِّثُ نَفْسَهُ فِي ثَبَاتٍ وَإِصْرَارٍ: «كَلَّا، لَنْ أَسْتَسْلِمَ لِلْيَأْسِ أَبَدًا. لَا بَدْءَ مِنَ الصَّبْرِ، فَلَيْسَ أَنْفَعُ مِنَ الصَّبْرِ فِي مُوَاجَهَةِ الْخُطُوبِ وَالْمِحَنِ. وَلَقَدْ طَالَمَا سَمِعْتُ أَنَّهُ مِفْتَاحُ الْفَرَجِ، وَلَنْ أَتَحَرَّكَ مِنْ مَكَانِي هَذَا؛ حَتَّى يُهَيِّئَ اللَّهُ لِي مَنْ يُعِينَنِي عَلَى اجْتِيَازِ هَذِهِ الْبِرْكَةِ الْبُعِيدَةِ الْغُورِ.»

### (٣) حَدِيثُ الْقِطِّ

وَمَا أَتَمَّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، حَتَّى لَقِيَ أَمَامَهُ قِطًّا هَائِلَ الْمُنْظَرِ. وَقَدْ تَفَرَّعَ «يُوسُفُ» مِنْهُ حِينَ سَمِعَهُ يَمُوءُ بِصَوْتٍ مُخِيفٍ مَرْهُوبٍ ... وَتَحَيَّرَ فِي أَمْرِهِ، فَلَمْ يَدِرْ، مَاذَا يَصْنَعُ.

فَقَالَ لَهُ الْقِطُّ: «كَيْفَ جَرُّوْتِ عَلَى بُلُوغِ هَذَا الْمَكَانِ! أَلَا تَعْرِفُ أَنَّي قَادِرٌ عَلَى تَمْزِيقِ جِسْمِكَ إِرْبًا إِرْبًا، بِضَرْبَةٍ مَحَلْبٍ وَاحِدَةٍ؟»

فَقَالَ «يُوسُفُ»: «مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ، يَا سَيِّدِي الْقِطُّ. وَإِنْ كُنْتُ لَا أَظُنُّ أَنَّ كَرِيمًا مِثْلَكَ يَفْعَلُ ذَلِكَ أَبَدًا، وَلَا سَيِّمًا إِذَا عَزَفَتْ أَنْنِي لَمْ أُخَاطِرْ بِنَفْسِي — لِبُلُوغِ هَذَا الْمَكَانِ الْبُعِيدِ — إِلَّا رَغْبَةً فِي تَحْقِيقِ غَايَةٍ مِنْ أَنْبَلِ الْغَايَاتِ. فَإِنَّ أُمَّي قَدْ أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَوْتِ، وَدَوَاؤُهَا فِي هَذِهِ الْحَدِيقَةِ. وَلَا سَبِيلَ إِلَى شِفَائِهَا، إِذَا لَمْ تَحْصُلْ عَلَى «نَبَاتِ الْحَيَاةِ». فَلْتَكُنْ عَوْنِي عَلَى تَحْقِيقِ غَايَتِي النَّبِيلَةِ، وَإِنِّي مُحَقِّقٌ لَكَ مَا تَأْمُرُنِي بِهِ مَتَى وَعَدْتَنِي بِذَلِكَ.»

### (٤) أَدَوَاتُ الصَّيْدِ

فَقَالَ الْقِطُّ: «أَحَقًّا تَقُولُ؟ إِذَنْ فَاصْغِ إِلَيَّ؛ فَإِنِّي مُعَجَّبٌ بِمَا أَرَاهُ عَلَى مُحَيَّاكَ مِنَ الْوَدَاعَةِ وَاللُّطْفِ، وَصِدْقِ الْعَزِيمَةِ. فَإِذَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَصِيدَ لِي كُلَّ مَا فِي هَذِهِ الْبِرْكَةِ مِنَ السَّمَكِ، ثُمَّ تَشْوِي نِصْفَهُ، وَتُقَدِّدَ النِّصْفَ الْآخَرَ؛ فَإِنِّي ضَمِينٌ لَكَ أَنْ أَبْلُغَكَ النَّاحِيَةَ الْآخَرَى لِهَذِهِ الْبِرْكَةِ الْعَمِيقَةِ الْوَأَسَعَةِ. وَسَتَرَى كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَدَوَاتٍ وَمُعَدَّاتٍ

عَلَى مَسَافَةٍ حَمْسِمَائَةٍ حُطْوَةٍ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ. وَلَيْسَ عَلَيْكَ — إِذَا أَنْجَزْتَ هَذَا الْمِهْمَ —  
إِلَّا أَنْ تَنَادِيَنِي، فَتَجِدْنِي أَمَامَكَ فِي الْحَالِ.»  
فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لَكَ، يَا مَوْلَايَ.»  
ثُمَّ حَيَّاهُ الْقَطُّ، وَغَابَ عَنْ نَظَرِهِ فِي الْحَالِ.

وَمَتَّى «يُوسُفُ» حَتَّى بَلَغَ الْمَخْرَنَ الَّذِي حَدَّثَهُ بِهِ الْجِنِّيُّ؛ فَرَأَى كُلَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ  
شُصُوصٍ وَشَبَاكٍ.

### (٥) الشَّبَكَةُ وَالشُّصُ

وَكَانَ يَحْسَبُ الصَّيْدَ سَهْلًا، لَا يُكَلِّفُهُ إِلَّا عَنَاءً قَلِيلًا، وَنَعْبًا يَسِيرًا، وَوَقْتًا قَصِيرًا.  
وَرَأَى الشَّبَكَةَ أَيْسَرَ لِتَحْقِيقِ أَمَلِهِ، وَأَوْفَى بِإِنجَازِ عَمَلِهِ. وَحَسِبَ أَنَّهُ مَتَى أَلْقَاهَا فِي  
الْبِرْكَةِ، امْتَلَأَتْ سَمَكًا؛ فَهِيَ — بِلَا شَكٍّ — أَنْفَعُ لِبُلُوغِ مَآرِبِهِ وَأَسْرَعُ.  
ثُمَّ رَمَى الشَّبَكَةَ، وَصَبَرَ عَلَيْهَا طَوِيلًا، حَتَّى أَيْقَنَ أَنَّهَا صَادَتْ مِقْدَارًا كَبِيرًا مِنْ  
السَّمَكِ. ثُمَّ جَذَبَهَا مُتَأَنِّيًا؛ وَلَكِنْ شَدَّ مَا أَدْهَشَهُ أَنْ يَرَى الشَّبَكَةَ لَمْ تَصْطَدْ سَمَكَةً وَاحِدَةً!  
ثُمَّ عَادَ فَرَمَاهَا، وَجَذَبَهَا مَرَّةً ثَانِيَةً فِي رَشَاقَةٍ وَخَفَةِ؛ فَلَمْ تُخْرَجِ الشَّبَكَةُ شَيْئًا.  
وَهَكَذَا بَقِيَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ؛ يَرْمِي الشَّبَكَةَ — مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى — دُونَ أَنْ يَظْفَرَ بِشَيْءٍ.  
فَتَرَكَ الشَّبَكَةَ، وَلَجَأَ إِلَى الشُّصِّ يَصْطَادُ بِهِ السَّمَكَ.. وَلَبِثَ سَاعَةً، ثُمَّ سَاعَتَيْنِ، فَلَمْ  
تَقْرُبْ مِنْهُ سَمَكَةً وَاحِدَةً.

فَانْتَقَلَ إِلَى مَكَانٍ ثَانٍ وَثَالِثٍ وَرَابِعٍ وَهَكَذَا، حَتَّى دَارَ حَوْلَ الْبِرْكَةِ كُلِّهَا؛ فَلَمْ تَقَعِ  
سَمَكَةً وَاحِدَةً فِي الشَّبَكَةِ وَلَا فِي الشُّصِّ.  
وَدَأَبَ عَلَى ذَلِكَ حَمْسَةَ عَشْرَ يَوْمًا، فَلَمْ يَكُنْ حَظَّهُ فِي مَكَانٍ، خَيْرًا مِنْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ.

### (٦) فَضْلُ الضُّفْدِيعِ

فَتَحَرَّيْرَ «يُوسُفُ»، وَلَمْ يَدْرِ: كَيْفَ يَصْنَعُ؟!



وَلَمَّا ضَاقَتْ بِهِ الْحِيلَةُ لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً لِلخُرُوجِ مِنْ هَذَا الضِّيقِ، مَا لَمْ تَعَاوِنُهُ  
الْحَبِيبَةُ: «وِدَادَ».

وَقَدْ اشْتَدَّتْ دَهْشَتُهُ، حِينَ ذَكَرَ أَنَّ «وِدَادَ» لَمْ تَتَّخَلَّ عَنْهُ قَطُّ؛ فَمَا بِالْهَذَا نَسِيبَتُهُ فِي  
هَذِهِ الضَّاغِقَةِ؟!

وَكَيْفَ تَخَلَّتْ عَنْهُ؛ وَتَرَكَتْهُ وَحِيدًا فِي آخِرِ مَرَحَلَةٍ مِنْ مَرَاجِلِ النَّجَاحِ؟!

وَطَالَ بِهِ الْجُلُوسُ وَهُوَ نَازِلٌ إِلَى الْبِرْكَةِ، مُسْتَعْرِقٌ فِي التَّفَكِيرِ.. وَإِذَا بِهِ يَرَى مَاءَ الْبِرْكَةِ  
يَغْلِي، ثُمَّ تَخْرُجُ مِنْهُ ضَفِيعٌ، وَتَنَادِيهِ قَائِلَةً: «أَنَا قُرَّةُ الْعَيْنِ. أَنْقَذْتُ حَيَاتِي، يَا سَيِّدِي  
«يُوسُفُ». وَسَأَبْدُلُ لَكَ إِمْكَانِي، لِأُنْقِذَ حَيَاتَكَ مِنَ التَّلْفِ؛ فَمَا جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ!  
وَاعْلَمْ أَنَّي مُدْرِكَةٌ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنَ الْحَرَجِ، وَلَسْتُ أَشْكُ فِي أَنَّ قِطُّ الْجَبَلِ.. أَكَلَكِ فِي  
فَطُورِهِ — لَا مَحَالَةَ — إِذَا أَحْفَقْتَ فِي إِنْجَازِ مَا كَلَّفَكَ إِيَّاهُ. وَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ  
أَنْ تَصْطَادَ مِنْ هَذِهِ الْبِرْكَةِ سَمَكَةً وَاحِدَةً؛ فَهِيَ شَدِيدَةُ الْعُمُقِ، بَعِيدَةُ الْغُورِ، وَمَتَى  
هَرَبَ السَّمَكُ إِلَى قَاعِهَا السَّحِيقِ، لَمْ تُدْرِكْهُ الشُّبَابُ، وَلَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ الشُّصُوصُ. فَلْتَرْحِ  
بِالْكَ مِنْ هَذَا التَّعَبِ، وَلْتُوَقِدِ النَّارَ رَيْنَمَا أُصْطَادَ كُلُّ مَا تَحْوِيهِ الْبِرْكَةُ مِنْ سَمَكٍ.»

وَلَمْ تَكِدِ الضَّفِيعُ تَتَمُّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، حَتَّى غَاصَتْ فِي الْمَاءِ غَوَصَةً وَاحِدَةً؛ فَإِذَا بِالْمَاءِ  
ثَائِرٌ مُضْطَرَّبٌ، كَأَنَّمَا نَشِبَتْ فِيهِ مَعْرَكَةٌ هَائِلَةٌ.

ثُمَّ ظَهَرَتْ الضَّفِيعُ بَعْدَ لَحْظَةٍ يَسِيرَةٍ، وَقَفَزَتْ عَلَى الشَّاطِئِ، وَوَضَعَتْ سَمَكَةً كَبِيرَةً  
صَادَتْهَا بِمَخَالِبِهَا.

وَلَمْ يَكِدْ «يُوسُفُ» يُمْسِكُ بِهَا، حَتَّى ظَهَرَتْ الضَّفِيعُ وَقَدْ اصْطَادَتْ حُوتًا كَبِيرًا.  
وَظَلَّتْ تَصْطَادُ مِنَ الْبِرْكَةِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، فَيَسْرِعُ صَاحِبُنَا إِلَى مَا تَصْطَادُهُ مِنْ  
سَمَكٍ كَبِيرٍ فَيَشْوِيهِ، ثُمَّ يُلْقِي بِمَا تَصْطَادُهُ مِنْ صِغَارِ السَّمَكِ فِي الْبَرَامِيلِ الْمُعَدَّةِ لِذَلِكَ  
وَيَقْدُدُهُ.

وَلَمْ يَنْقُضْ عَلَيْهِمَا شَهْرَانِ حَتَّى أَنْجَزَا مَا طَلَبَهُ الْقِطُّ.

## (٧) وداع الضفدع

وهناك قفزت الضفدع على شاطئ البركة، قائلة: «لقد أنجزت لك ما طلبه قط الجبل منك. وفي وسعك الآن أن تنادي». «

فشكر «يوسف» للضفدع أجرل الشكر.

فحيته منوددة، ومدت إليه يدها المبللة تودعه، مسلمة عليه، متحبة إليه. فصافحها «يوسف» مكرراً لها ثناءه، وشكره ودعاءه.

ولم تنقض خمسة عشر يوماً، حتى أتى «يوسف» ترتيب ما شواه من السمك وتصفيته، كما ملأ البراميل بالمقدد منه.

## (٨) مخلب القبط

ثم نادى القبط فجاء إليه في الحال.

فقال «يوسف»: «هاك - يا مولاي - كل ما تحويه البركة من السمك مشويًا وقديداً...»

فلما رأى القبط ذلك، لحس شفثيه مبسماً، ثم قال، والفرح باد على وجهه: «يا لك من بارع همام! لقد أنجزت لي ما طلبته منك، وبقي علي أن أكافئك على ما تحملت في سبيلي من صبر، وما لقيت من تعب وجه؛ حتى لا يقال: إن قط الجبل لم يجز المحسن على عمله.»

وما إن أتت هذه الكلمات، حتى انتزع مخلباً من مخالبه؛ ثم أعطاه «يوسف» هديته، وهو يقول: «إذا حل بك المرض، أو انتابك الضعف حين تكبر وتبلغ سن الشيخوخة. فالمس جبينك بهذا المخلب؛ فإن الأمراض والآلام والشيخوخة كلها تزول في الحال. وكذلك يكون أثر المخلب عند كل من تحب، وكل من يحبونك.»

فشكر «يوسف» للقبط أجرل الشكر، ثم أخذ المخلب الثمين - وكان الضعف قد

بلغ به كل مبلغ - وأراد أن يجربه ليتعرف أثره في الحال.



فَلَمْ يَكِدِ الْمَخْلُبُ يَمَسُّ جَبِينَهُ حَتَّى شُفِيَ أَلْمُهُ، وَانْقَلَبَ ضَعْفُهُ قُوَّةً، وَأَحْسَّ رَاحَةً  
خَيَّلَتْ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَمْ يَلْقَ أَيَّ عَنَاءٍ، وَلَمْ يَبْدُلْ أَيَّ تَعَبٍ؟ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَسْهَرْ هَذِهِ اللَّيَالِي الطُّوَالَ.  
فَنَهَضَ فِي الْحَالِ وَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُهُ سُرُورًا.

فَلَمَّا رَأَهُ الْقِطُّ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ، ابْتَسَمَ لَهُ، وَقَالَ: «هَلُمَّ فَاصْعِدْ عَلَيَّ ذَيْلِي، لِأُبَلِّغَكَ مَا  
تَتَمَنَّا.»

## الْعَقَبَةُ الْآخِرَةُ

فَخَضَعَ «يُوسُفُ» لِلْأَمْرِ.  
وَمَا اسْتَقَرَّ عَلَى ذَيْلِ الْقِطِّ، حَتَّى امْتَدَّ الذَّيْلُ إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى الطَّرْفِ الْآخَرِ؛ فَكَانَ  
لَهُ جِسْرًا عَبَرَ عَلَيْهِ، فَبَلَغَ الشَّاطِئَ سَالِمًا آمِنًا.



## الفصل السابع

# «شَجَرَةُ الْحَيَاةِ»

### (١) بَابُ الْحَدِيقَةِ

وَمَا إِنَّ غَابَ الْقَطُّ عَنْ نَاضِرِهِ، حَتَّى أَسْرَعَ «يُوسُفُ» إِلَى الْحَدِيقَةِ الْعَظِيمَةِ، الَّتِي نَبَتَتْ فِيهَا «شَجَرَةُ الْحَيَاةِ»، وَكَانَتْ عَلَى مَسَافَةِ خُطَوَاتٍ قَلِيلَةٍ مِنَ الْبَابِ.  
وَقَدْ خَشِيَ أَنْ يُفَاجِئَهُ طَائِرٌ مِمَّا أَلْفَهُ فِي رِحْلَتِهِ الْمَلُوءَةِ بِالْأَعَاجِبِ وَالْمُفَاجِئَاتِ.  
فَدَعَا اللَّهَ — سُبْحَانَهُ — أَنْ يُبَلِّغَهُ مُرَادَهُ، وَيُجَنِّبَهُ الْمَوَانِعَ وَالْمُعَوَّقَاتِ؛ حَتَّى يَصِلَ إِلَى غَايَتِهِ، وَيَفُوزَ بِأَمْنِيَّتِهِ.  
وَقَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ، وَحَقَّقَ لَهُ رَغْبَتَهُ وَرَجَاءَهُ، فَلَمْ تُصَادِفْهُ — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ — عَقَبَةٌ وَاحِدَةٌ.  
وَلَمَّا بَلَغَ سُورَ الْحَدِيقَةِ، لَمْ يَطُلْ بَحْتُهُ عَنِ الْبَابِ، فَقَدِ اهْتَدَى إِلَيْهِ فِي الْحَالِ.

### (٢) حَارِسُ النَّبَاتِ

لَمْ تَكُنِ الْحَدِيقَةُ كَبِيرَةً لِحُسْنِ حَظِّهِ، وَإِنْ كَانَتْ عَلَى صِغَرِهَا تَحْوِي كَثِيرًا مِنْ أَنْوَاعِ النَّبَاتِ، مِمَّا لَا عَهْدَ لَهُ بِمَعْرِفَتِهِ.  
وَقَدْ اخْتَفَتِ «شَجَرَةُ الْحَيَاةِ» بَيْنَ آلاَفِ الْأَشْجَارِ الْأُخْرَى؛ فَاسْتَحَالَ عَلَيْهِ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْهَا.

عَلَى أَنْ حَيْرَتَهُ لَمْ تَدُمْ طَوِيلًا، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ ذَكَرَ وَصِيَّةَ الْجَنِّيَّةِ: «وَدَادَ»، الَّتِي نَصَحَتْ لَهُ بِاسْتِدْعَاءِ حَارِسِ النَّبَاتِ.

فَنَادَاهُ بِصَوْتِ جَهَوْرِيِّ<sup>١</sup>.

وَلَمْ يَكُنْ يَتَمُّ نِدَاءَهُ حَتَّى سَمِعَ وَقَعَ أَقْدَامِ تَقَرَّبُ مِنْهُ.

ثُمَّ رَأَى فَتَى صَغِيرًا — فِي زِيِّ الْأَطِبَّاءِ — يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْأَشْجَارِ، وَيَقْتَرِبُ مِنْهُ، وَقَدْ حَمَلَ تَحْتَ إِبْطِهِ كِتَابًا، وَوَضَعَ عَلَى كَتِفِهِ مِعْطَفًا أَبْيَضَ فَضْفَاضًا<sup>٢</sup>، طَالَمَا رَأَى الْأَطِبَّاءَ يَلْبَسُونَ مِثْلَهُ؛ وَرَأَى عَلَى أَنْفِهِ الْمُقْوَسَ مِنْظَارًا.

وَلَمْ تَكُنْ تَلْتَقِي أَعْيُنُهُمَا، حَتَّى ابْتَدَرَهُ<sup>٣</sup> حَارِسُ النَّبَاتِ قَائِلًا: «عَمَّ تَبَحْتُ، أَيُّهَا الصَّغِيرُ؟ وَكَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ؟»

فَقَالَ لَهُ «يُوسُفُ»: «إِنِّي رَسُولُ الْجَنِّيَّةِ: «وَدَادَ» إِلَيْكَ، يَا سَيِّدِي الطَّيِّبِ. وَقَدْ جِئْتُ أَطْلُبُ شَيْئًا مِنْ نَبَاتِ الْحَيَاةِ، لِأَشْفِي بِهِ أُمِّي الْمَشْرِفَةَ عَلَى الْمَوْتِ.»

فَقَالَ لَهُ حَارِسُ النَّبَاتِ مُبْتَسِمًا: «أَهْلًا بِكَ، وَبِكُلِّ مَنْ تُرْسِلُهُ الْجَنِّيَّةُ «وَدَادَ». هَلُمَّ أَيُّهَا الصَّغِيرُ، لِأَحَقِّقَ لَكَ طَلَبَكَ وَأُبْلِغَكَ أُمْنِيَّتَكَ.»

ثُمَّ سَارَ حَارِسُ النَّبَاتِ، وَمَشَى «يُوسُفُ» فِي أَثَرِهِ، وَظَلًّا يَتَنَقَّلَانِ فِي حَدِيقَةِ الْأَزْهَارِ.

وَكَانَ «يُوسُفُ» يَتَّبِعُ الْحَارِسَ فِي مَشَقَّةٍ وَعَنَاءٍ، لِأَنَّ الْغُصُونَ الْمُشْتَبِكَةَ كَثِيرًا مَا أَحْفَتُهُ عَنْهُ.

ثُمَّ انْتَهَيَا إِلَى «شَجَرَةِ الْحَيَاةِ».

<sup>١</sup> الجهوري: المرتفع.

<sup>٢</sup> فضفاضا: واسعا.

<sup>٣</sup> ابتدره: بدأه.

### (٣) «نَبَاتُ الْحَيَاةِ»

فَأَخْرَجَ الْحَارِسُ الْقَرْمَ مِنْجَلًّا صَغِيرًا مِنْ جَبِيهِ، وَاقْتَطَعَ مِنَ الشَّجَرَةِ سَاقًا صَغِيرَةً، ثُمَّ أَعْطَاهَا «يُوسُفُ» قَائِلًا: «هَذَا هُوَ النَّبَاتُ الَّذِي حَدَّثْتَكُ بِهِ الْجِنِّيَّةُ «وِدَادُ». وَقَدْ وَصَفْتَ لَكَ الْجِنِّيَّةُ كَيْفَ تَسْتَحْدِمُهُ لِشِفَاءِ أُمِّكَ؛ فَلَا حَاجَةَ بِي إِلَى تَكَرُّارِ مَا قَالَتْهُ لَكَ. عَلَى أَنَّي أُوصِيكَ أَنْ تَحْرِصَ عَلَى هَذَا النَّبَاتِ النَّفِيسِ النَّادِرِ. وَحَذَارُ أَنْ يُفْلِتَ مِنْكَ بَعْدَ أَنْ ظَفَرْتَ بِهِ، فَمَا أَيَسَّرَ مَا يَسْتَحْفِي هَذَا النَّبَاتُ، إِذَا تَهَاوَنَ صَاحِبُهُ فِي الْإِحْتِفَازِ بِهِ. مَتَى اسْتَحْفَى، فَهَيْهَاتَ أَنْ تَعْتَرَّ عَلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَرَاهُ.»

وَأَرَادَ «يُوسُفُ» أَنْ يَشْكُرَ لِحَارِسِ النَّبَاتِ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا غَابَ بَيْنَ الْأَشْجَارِ. وَرَأَى «يُوسُفُ» نَفْسَهُ مُنْفَرِدًا، بَعْدَ أَنْ أَدْرَكَ غَايَتَهُ؛ فَلَمْ يَبْقَ أَمَامَهُ إِلَّا أَنْ يَعُودَ إِلَى دَارِهِ، لِيَقْدِمَ لِأُمِّهِ النَّبَاتِ الشَّافِي.

وَهُنَا وَقَفَ يُسَائِلُ نَفْسَهُ مُفَكِّرًا، وَهُوَ يَخْشَى أَنْ يَلْقَى فِي عَوْدَتِهِ مِثْلَ مَا لَقِيَهِ فِي رِحْلَتِهِ مِنَ الْعَوَاتِقِ وَالْمَتَاعِبِ، فَلَا يَسْتَطِيعُ الْإِحْتِفَازَ بِهَذَا النَّبَاتِ النَّمِينِ الَّذِي يَرُدُّ الْحَيَاةَ إِلَى أُمِّهِ الْعَزِيزَةِ، وَيَشْفِيهَا مِنَ الْأَلَامِ.

### (٤) «عَصَا «أُوَيْسُ»»

وَإِنَّهُ لَغَارِقٌ فِي تَأْمَلِهِ، مُسْتَسْلِمٌ لِتَفَكِيرِهِ، إِذْ وَقَعَتْ مِنْ يَدِهِ — الْعَصَا الَّتِي أَهْدَاهَا إِلَيْهِ الذُّنْبُ.

فَتَذَكَّرَ فِي الْحَالِ مَا حَدَّثَهُ بِهِ الذُّنْبُ «أُوَيْسُ»، وَوَلَّاحَتْ لَهُ بَارِقَةٌ أَمَلٍ فِي النَّجَاحِ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: «مَاذَا عَلَيَّ إِذَا جَرَّبْتُ هَذِهِ الْعَصَا؛ فَلَعَلَّهَا تُبَلِّغُنِي بَيْتِي — فِي زَمَنِ قَلِيلٍ — إِذَا رَكِبْتُهَا، فَيَتَحَقَّقُ لِي بِذَلِكَ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ «أُوَيْسُ» مُنْذُ قَرِيبٍ.»

وَمَا إِنَّ رَكَبَ الْعَصَا حَتَّى رَأَى نَفْسَهُ مُسْتَقِرًّا عَلَيْهَا، كَمَا يَسْتَقِرُّ الْفَارِسُ عَلَى فَرَسِهِ!.. فَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَعُودَ بِهِ إِلَى بَيْتِهِ ... وَمَا أْتَمَّ قَوْلَهُ، حَتَّى شَعَرَ أَنَّهُ ارْتَفَعَ فِي الْهَوَاءِ.

٤ حذار: احذر.



## (٥) شِفَاءُ الْمَرِيضَةِ

وَوَظَلَّ يَطِيرُ فِي الْفَضَاءِ بِمِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخَاطِفِ؛ فَلَمْ تَنْقُضِ لَحْظَةً قَصِيرَةً، حَتَّى وَجَدَ نَفْسَهُ فِي دَارِهِ؛ جَالِسًا عِنْدَ سَرِيرِ أُمِّهِ الَّتِي أَشْرَفَتْ عَلَى الْمَوْتِ.  
فَأَسْرَعَ إِلَيْهَا، وَقَبَّلَهَا فِي حَنَانٍ وَشَوْقٍ.  
وَلَكِنَّهَا لَمْ تَشْعُرْ بِقُدُومِهِ، وَلَمْ تَفْطِنْ إِلَى تَحِيَّتِهِ.  
فَلَمْ يَضِعْ «يُوسُفُ» وَقْتَهُ بِلَا فَايِدَةٍ، بَلْ عَصَرَ «نَبَاتَ الْحَيَاةِ» عَلَى شَفَتَيْ أُمِّهِ.

وَلَمْ يَكِدْ يَفْعَلُ حَتَّى فَتَحَتْ عَيْنَيْهَا، وَطَوَّقَتْ «يُوسُفَ» بِذِرَاعَيْهَا، وَصَاحَتْ تَقُولُ: «وَأَفْرَحْتَاهُ بِكَ! أَيْنَ أَنَا، وَأَيْنَ أَنْتَ؟ أَيْنَ كُنْتُ أَنَا — يَا وَلَدِي — وَأَيْنَ كُنْتُ أَنْتَ؟ لَقَدْ فَارَقْتَنِي الْمَرَضُ، وَزَالَيْتَنِي الْوَجْعُ وَالْأَلَمُ. وَهَأَنْذِي أَحْسُ الْآنَ دَبِيبَ الشِّفَاءِ فِي جِسْمِي. فَشُكْرًا لِلَّهِ عَلَى نِعْمَائِهِ.»

ثُمَّ نَظَرَتْ إِلَى «يُوسُفَ» مَدْمُوسَةً وَهِيَ تَقُولُ: «مَاذَا جَرَى؟ وَكَيْفَ كَبُرَتْ هَكَذَا — يَا وَلَدِي الْعَزِيزَ بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ؟»

وَكَانَ «يُوسُفُ» — فِي الْحَقِيقَةِ — قَدْ كَبُرَ فَقَدْ تَرَكَ أُمَّهُ مُنْذُ سَنَتَيْنِ وَسَبْعَةِ أَشْهُرٍ وَسِتَّةِ أَيَّامٍ.

وَكَانَ عُمُرُهُ — قَبْلَ أَنْ يَبْدَأَ هَذِهِ الرَّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ الشَّاقَّةَ — عَشْرَ سَنَوَاتٍ.

## (٦) عَوْدَةُ «وِدَادٍ»

وَقَبْلَ أَنْ يَنْطِقَ «يُوسُفُ» بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ فَتَحَتْ النَّافِذَةَ، وَظَهَرَتْ الْجَنِّيَّةُ «وِدَادُ». فَقَبَّلَتْ «يُوسُفَ»، وَهَنَاتَهُ بِمَا تَمَيَّزَ بِهِ مِنْ شَجَاعَةٍ، وَمَا تَحَلَّى بِهِ مِنْ نَبَاتٍ، وَمَا ظَفَرَ بِهِ مِنْ نَجَاحٍ وَتَوْفِيقٍ.

تُمْ اقْتَرَبْتِ «وداد» مِنْ سَرِيرِ أُمِّهِ، وَأَقْبَلْتَ عَلَيْهَا تُحَدِّثُهَا بِكُلِّ مَا تَحْمَلُهُ وَلَدَهَا الشُّجَاعُ فِي سَبِيلِ شِفَائِهَا، وَتَصِفُ لَهَا مَا تَعَرَّضَ لَهُ وَاسْتَهْدَفَ مِنَ الْمَتَاعِبِ، وَالْأَخْطَارِ، وَكَيْفَ خَاصِ الْأَهْوَالِ بِمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنْ جُرْأَةٍ وَصَبْرٍ وَكَرَمِ نَفْسٍ.

فأَحْمَرَ وَجْهَهُ «يُوسُفَ» خَجَلًا مِنْ ثَنَاءِ الْجَنِّيَّةِ عَلَيْهِ، وَامْتِدَاحِهَا إِيَّاهُ. وَلَمْ يَكُنْ يَرَى فِيهَا صَنَعَ شَيْئًا يَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ، لِأَنَّهُ — فِيمَا يَعْتَقِدُ — لَمْ يُوَدِّ غَيْرَ مَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يُودِيَهُ لِأَمِّهِ.

وَأَدْرَكَتْ أُمُّهُ مَا تَحْمَلُهُ فِي سَبِيلِ إِنْقَازِهَا، فَضَمَّتْهُ إِلَى صَدْرِهَا حَانِيَةً، وَظَلَّتْ تُقْبِلُهُ شَاكِرَةً رَاضِيَةً.

#### (٧) عُلبَةُ السَّعُوطِ

وَالْتَفَتَتِ الْجَنِّيَّةُ «وداد» إِلَى «يُوسُفَ» قَائِلَةً: «لَا تَنْسَ — يَا عَزِيزِي «يُوسُفَ» — مَا ظَفَرْتَ بِهِ مِنَ النَّفَائِسِ الَّتِي أَهْدَاها إِلَيْكَ الشَّيْخُ الْقَزَمُ؛ فَإِنَّهَا كَفِيلَةٌ بِتَحْقِيقِ مَا تُرِيدُ.» فَأَخْرَجَ «يُوسُفَ» عُلبَةَ السَّعُوطِ، وَفَتَحَهَا.

فَخَرَجَ مِنْهَا — فِي الْحَالِ — طَائِفَةٌ مِنَ الْعُمَّالِ الصَّغَارِ، لَا يَزِيدُ طَوْلُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ عَلَى حَجْمِ النَّمْلَةِ، أَوْ حَجْمِ الْأَنْمَلَةِ. ° فَاْمْتَلَأَتْ بِهِمْ حُجْرَاتُ الْبَيْتِ وَفَنَاوَهُ.

وَظَلُّوا يُوَاصلُونَ عَمَلَهُمْ فِي سُرْعَةٍ وَمَهَارَةٍ وَإِتْقَانٍ. وَلَمْ تَمْضِ رُبْعُ سَاعَةٍ، حَتَّى شَيَّدُوا لَهُ قَصْرًا عَالِيًا بَدِيعًا؛ تُحِيطُ بِهِ حَدِيقَةٌ غَنَاءٌ، وَأَثْوُهُ بِأَفْحَرِ الْأَثَاثِ.

تُمْ غَرَسُوا إِلَى جَانِبِهِ غَابَةً كَبِيرَةً، وَمَرَعَى فَسِيحًا؛ رَائِعِ الْخَضْرَاءِ بَدِيعِ التَّنْسِيقِ.

° الأنملة: رأس الإصبع.

(٨) زَهْرَةُ السُّوكِ

ثُمَّ قَالَتْ الْجِنِّيَّةُ «وِدَادُ»: «هَذَا بَعْضُ مَا تَسْتَحِقُّ، أَيُّهَا الشُّجَاعُ الْمِقْدَامُ. وَلَا تَنْسَ «زَهْرَةَ السُّوكِ» الَّتِي أَهْدَاهَا الْجِنِّي إِلَيْكَ. فَإِنَّهَا مِنَ الْكُنُوزِ النَّادِرَةِ الَّتِي تُسْعِدُ مَنْ يُوقِعُهَا الْحِظُّ السَّعِيدُ فِي يَدَيْهِ.

وَحَسْبُكَ أَنْ تَذْكَرَ — حِينَ تَشْمُهَا — أَيَّ شَيْءٍ تَتَمَنَّاهُ، فَإِنَّكَ لَا تَلْبَثُ أَنْ تَرَاهُ.

(٩) عَصَا «أُوَيْسٍ»

وَسَتَكُونُ لَكَ عَصَا «أُوَيْسٍ» — كَمَا رَأَيْتَ حِصَانًا تَرْكَبُهُ، فَيَذْهَبُ بِكَ إِلَى حَيْثُ تَشَاءُ فِي مِثْلِ سُرْعَةِ الْبَرْقِ الْخَاطِيفِ.

(١٠) مِخْلَبُ الْقِطِّ

وَسَيَكْفُلُ مِخْلَبُ الْقِطِّ — لَكَ وَلِوَالِدَتِكَ صِحَّةً مَوْفُورَةً، وَشَبَابًا مُتَجَدِّدًا. فَالآنَ أَوْدَعُكَ بَعْدَ أَنْ أْتَمَّ اللَّهُ عَلَيْكَ نِعْمَتَهُ وَأَسْبَغَ عَلَيْكَ فَضْلَهُ وَرَعَايَتَهُ. وَقَدْ أَصْبَحْتَ أَمِنَةً عَلَيْكَ، فَلِيْمَتْعَكَ اللَّهُ بِأَمْكِ الْحُنُونِ فِي سَعَادَةٍ، وَرِعَادَةٍ عَيْشٍ، وَرَاحَةٍ بِالِ.

وَلَنْ تَعْدَمَ الْفَضِيلَةَ نَصِيرًا، وَلَنْ يُضِيعَ اللَّهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا. وَقَدْ جَزَاكَ اللَّهُ عَلَى حُبِّكَ الْبُنَوِيِّ — كَمَا رَأَيْتَ أَحْسَنَ الْجَزَاءِ.»

فَأَقْبَلَ «يُوسُفُ» عَلَى الْجِنِّيَّةِ «وِدَادُ» شَاكِرًا مَسْرُورًا، وَأَنْهَالَ عَلَى يَدَيْهَا لَثْمًا وَتَقْبِيلًا، فَشَيَّعَتْهُ بِابْتِسَامَةٍ رَاضِيَةٍ، مَشْفُوعَةٍ بِتَحِيَّةٍ طَيِّبَةٍ عَطْرَةٍ. ثُمَّ تَوَارَتْ عَنْ نَاضِرِهِ، وَلَمْ تَعْبُ عَنْ خَاطِرِهِ.

## (١١) تَحْقِيقُ الْأَمَانِيِّ

وَأَرَادَتْ أُمُّ «يُوسُفَ» أَنْ تَذْهَبَ إِلَى قَصْرِهَا الْجَدِيدِ لِتَتَمَتَّعَ بِهِ، وَتَتَّعَمَ بِمَا حَوْلَهُ مِنْ حَدِيقَةٍ وَغَابِيَةٍ وَمَرَعَى؛ وَلَكِنَّهَا لَمْ تَجِدْ ثَوْبًا تَلْبَسُهُ؛ فَقَدَّ بَاعَتْ — فِي أَثْنَاءِ مَرَضِهَا — كُلَّ مَا تَمَلَّكُهُ مِنْ أَثَاثٍ وَثِيَابٍ، فِي سَبِيلِ الْحُصُولِ عَلَى الْخُبْزِ: الْخُبْزِ — وَحْدَهُ — بِلا طَعَامٍ، كَمَا حَدَّثْتِكِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الشَّائِقَةِ الْعَجِيبَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ «يُوسُفُ» يَرَى حَيْرَتَهَا، حَتَّى أَدْرَكَ مَا يَدُورُ بِخَاطِرِهَا، فَقَالَ لَهَا مُبْتَسِمًا:  
«لَبَيْكِ، لَبَيْكِ، يَا أُمَاهُ.. فَإِنِّي جَالِبٌ لِكَ كُلِّ مَا تَشْتَهِينِ.»

ثُمَّ أَخْرَجَ مِنْ جَنِبِهِ زَهْرَةَ الشُّوكِ، وَقَرَّبَهَا مِنْ أَنْفِهِ.

وَلَمْ يَكُنْ يَشْتُمُهَا — وَهُوَ يُفَكِّرُ فِيمَا تَشْتَهِيهِ أُمُّهُ مِنْ ثِيَابٍ غَالِيَةِ، وَأَحْذِيَةِ فَاخِرَةٍ — حَتَّى وَجَدَ كُلُّ مَا دَارَ بِخَاطِرِهِ مِنَ الْأَمَانِيِّ حَاضِرًا، بَلْ وَجَدَ أَكْثَرَ مِمَّا تَمَنَاهُ وَتَحَيَّلَهُ. فَرَأَى أُمَامَهُ صَوَانًا حَافِلًا بِأَنْفِيسِ الْأَثْوَابِ وَرَأَى — إِلَى جَانِبِهِ — صَوَانًا حَافِلًا بِأَعْلَى الْأَحْذِيَةِ، وَثَالِثًا، وَرَابِعًا، وَهَكَذَا.

وَقَدْ حَوَتْ هَذِهِ الْأَصُونَةُ أَجْمَلٌ مَا يَتَمَثَّلُهُ «يُوسُفُ» وَأُمُّهُ مِنْ نَفِيسِ الثِّيَابِ، وَبَدِيعِ الْأَكْسِيَةِ.

فَصَاحَ «يُوسُفُ» وَأُمُّهُ مَدْهُوشِينَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ.

وَتَخَيَّرَ «يُوسُفُ» ثَوْبًا مِنَ الْجُوعِ الْأَزْرَقِ النَّفِيسِ، وَحِذَاءً لَامِعًا، وَتَخَيَّرَتْ أُمُّهُ ثَوْبًا مُطَرِّزًا بِالذَّهَبِ، مُرْصَعًا بِاللُّوْلُؤِ.

ثُمَّ أَسْرَعَتْ بِالذَّهَابِ — مَعَ ابْنِهَا — إِلَى الْقَصْرِ الْجَدِيدِ. وَطَافَا بِحُجْرَاتِهِ الْفَسِيحَةِ، وَشَهِدَا أَثَاثَهُ الْفَاجِرِ، وَسَجَاجِيدَهُ النَّفِيسَةَ، الَّتِي لَا يُوجَدُ مِثْلُهَا فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ. وَطَافَا بِالْمَطْبَخِ. وَحُجْرَةِ الطَّعَامِ، فَوَجَدَا كُلَّ الْمُعَدَّاتِ كَامِلَةً، وَرَأَى الْأَوَانِي وَالْأَطْبَاقَ كَثِيرَةً مَوْفُورَةً.

وَأَحْسَسَ كِلَاهُمَا بِالْجُوعِ، وَلَكِنَّهُمَا لَمْ يَجِدَا فِي الْقَصْرِ شَيْئًا مِنَ الطَّعَامِ.

فَأَمْسَكَ «يُوسُفُ» بِزَهْرَةِ الشُّوكِ وَقَرَّبَهَا مِنْ أَنْفِهِ.

## شجرة الحياة

وَمَا إِنَّ شَمَّهَا — وَهُوَ يَتَمَنَّى طَعَامًا فَاخِرًا — حَتَّى وَجَدَ عَلَى الْمَائِدَةِ كُلَّ مَا تَشْتَهِيهِ  
نَفْسُهُ: مِنْ حَسَاءٍ سَاخِنٍ، وَفَخِذِ خُرُوفٍ مَقْلِيَّةٍ، وَدَجَاجٍ مَشْوِيِّ، وَكَثِيرٍ مِنَ التَّوَابِلِ؛  
فَجَلَسَ مَعَ أُمِّهِ عَلَى الْمَائِدَةِ؛ وَرَاحَا يَأْكُلَانِ هَنِئًا مَرِيئًا حَتَّى شَبِعَا.

ثُمَّ رَفَعَا مَا فَوْقَ الْمَائِدَةِ مِنْ صِحَافٍ وَأَطْبَاقٍ وَغَسَلَاهَا، وَرَتَّبَاهَا، بَعْدَ أَنْ وَضَعَاهَا فِي  
أَمَاكِنِهَا مِنَ الْمَطْبَخِ.

ثُمَّ أَعَدَّا سَرِيرِي النَّوْمِ، وَأَخْرَجَا مِنَ الْأَصْوِنَةِ أَفْخَرَ الْفُرْشِ، فَوَضَعَاهَا عَلَى السَّرِيرَيْنِ،  
ثُمَّ نَامَا عَلَيَّهِمَا نَوْمًا هَادِئًا، بَعْدَ أَنْ حَمِدَا اللَّهَ وَشَكَرَا لِلْحَنِئَةِ: «وِدَادَ»، مَا هَيَّأَتْهُ لَهُمَا  
مِنْ أَسْبَابِ الْهَنَاءِ وَالرَّخَاءِ، وَمَا يَسَّرَتْهُ لَهُمَا مِنْ وَسَائِلِ الْبَهْجَةِ وَالسَّعَادَةِ، كَمَا شَكَرَتْ  
الْأُمُّ لَوْلَاهَا مَا قَامَ بِهِ — فِي سَبِيلِهَا — مِنْ جَلَائِلِ الْأَعْمَالِ.

## خاتمة القصة

وعاش «يوسف» وأمه — منذ ذلك اليوم في هناء وسرور، لا يعوزهما شيء في الحياة؛  
بفضل ما ظفرا به من المزايا الخلقية والهدايا السحرية.  
ولم تغلّ لهما صحة، ولم يدركهما ضعف الشيخوخة، بعد أن ظفرا بنبات  
الحياة؛ ومخلّب القط.

ولم يحتاجا إلى العصا لتحملهما؛ لأنهما لم يفكرا في السفر إلى أي مكان.  
ولم يبرحا قصرهما. بعد أن توافرت لهما فيه كل أسباب السعادة والرخاء.

وأمسك «يوسف» بزهرة الشوك، فأذناها من أنفه وهو يفكر في حاجته إلى بقرتين  
سمينتين، وحصانين أصيلين، وأشياء أخر من ضروريات الحياة.  
وما كان يشم زهرة الشوك، حتى وجد أمامه كل ما تمناه.  
ولم يكن شرها ولا طمعا، فلم يطلب أكثر مما يحتاج إليه، مما لا تطيب الحياة  
إلاّ به.

وقد احتفظ بالهدايا السحرية، فلم يفرط في شيء منها.  
وكان من حظّه وحظّ أمّه أن يظفرا بحياة طيبة، فعاشا ممتعين بأكمل صحّة  
وآتم عافية.

وعاشت قصتهما مثلاً صالحاً للبرّ والمروءة والوفاء، وقُدوة حسنة للأبناء.